أفاق فكرية
مسألة علوم الطب والصيدلة عند علماء الجزائر خلال العهد العثماني
ص . ص 20 - 53
رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
-wafia@live.f

مسألة علوم الطب والصيدلة عند علماء الجزائر خلال العهد العثماني

- **وافية نفطي**
- **جامعة محمد خيضر بسكرة** nafti-wafia@live.f

تاريخ الارسال : 2018-07-04 **تاريخ القبول:** 2019-04-28 **تاريخ النشر:** 2019-05-29

الملخص: وصف أبو القاسم سعد الله –رحمه الله– في موسوعته حول تاريخ الجزائر الثقافي في الجزء الأول والثاني، أن العهد العثماني في الجزائر يعتبر فقيرا في تقدم العلوم العقلية والفنون، وعنايتهم بتدوين الطب والفلك قليلة إذا ما قورنت بعنايتهم بالعلوم الشرعية والأدب والتصوف. وهذا ربما ما جعل الرحالة الأجانب الذين زاروا الجزائر ومكثوا فيها لفترة خلال العهد العثماني وغيرهم من القناصل الأوروبيين، يحكمون حكما قاسيا على علماء الجزائر،لتقصيرهم في عدم الاهتمام بالطب والصيدلة، ولجوء المجتمع إلى ممارسة الطب التقليدي(الشعبي) الذي يعتمد على المواد الطبيعية كالأعشاب وبعض أعضاء الحيوانات، وبعض الدهانات، إلى جانب الكي والرقية، ويتهمونهم حتى بممارسة السحر والشعوذة في مجال التطبيب ومعالجة الأمراض.

ورغم تلك الأوصاف المختلفة والأحكام القاسية من كلا الجانبين نرى أن الأمر لا يخلو من بعض الكتابات التي نجد فيها ابتكارا، وتجديدا، واهتماما بالبدن، والواقع الصحي للمجتمع الجزائري، في تلك الفترة. سوف نركز في هذه الورقة البحثية على مساهمتين ظهرتا أواخر العهد العثماني كانتا بمثابة تجديد في عصرهم، وهما: الأول كتاب "كشف الرموز في شرح العقاقير والأعشاب"، لعبد الرزاق ابن حمادوش، عاش خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادي والثاني لحمدان بن عثمان خوجة إتحاف المنصفين والأدباء بمباحث الاحتراز من الوباء، الذي قدمه هدية إلى السلطان العثماني محمود الثاني(1808-1839م) سنة 1836م.

الكلمات المفتاحية: علماء الجزائر- العهد العثماني- الطب الشعبي- الطاعون- الكتابات الأوروبية- ابن حمادوش- حمدان بن عثمان خوجة.

The question of medicine and pharmacology among Algerian scholars during the Ottoman era

Abstract : Aboul kacem Saadallah, an Algerian historian, described the Algerian Cultural History during The Ottmen era in his Encyclopedia as quite poor in terms of its progress in arts ,medicine and astronomy, in comparison to some other sciences like Theology , Litterature and Suffism . So, that may have led many foreign European travelers and consels to condemn the Algerian scholars for their lack of interest in medicine and Pharmacy which prompted widespread practice of traditional Medicine, wichcraft and sorcery.

Despite these harsh criticism , we find that some of the Algerian scholar's writtings were not to be totally devoid of some level of innovation and interest in human health and rather had benifited society in general at that time. Thus,we will focus our study on two important attributions ;The first one was the symbol book relating to herbs and drugs by Abderrazaq Ibn Hamadouch Al-Djaza'Iri who was considered by Dr. Lucien Leclerc as the last ideal representative of the arab medicine. The second book was about the protection from epedimics that was written by Hamdan Ibn Ottman Khouja, whom he gifted to the Ottman Sultan Mahmoud II (1808-1839).

Keys Word : Algerian scholars, Ottoman era, Traditional medicine, Ibn Hamadouch, Hamdan Ibn Ottman Khouja

www.manaraa.com

مقدمة:

عند تصفح ما كتب حول الطب في المغرب الأوسط في الفترة الوسيطة وما كانت عليه كل من مدينة بجاية، ومدينة قسنطينة، ومدينة تلمسان من اهتمام بالطب والصيدلة من جانب العلماء والسلطة، وتوفرهم على، المدارس، والمارستانات(مستشفى)، يجعلنا نطرح العديد من الإشكاليات حول مدى اهتمام علماء الجزائر بعلوم الطب والصيدلة في العهد العثماني خلال القرنين السادس عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر. وما هي الأسباب التي جعلت علماء الجزائر يعرضون عن العلوم العقلية، وخاصة التدوين في مجال الطب والصيدلة، إلى من كان يلجأ رجال السلطة عند المعالجة من الأمراض، كيف كان يعالج الجزائريون من الأمراض، ما هي الأهمية العلمية والتاريخية لكل من مساهمة عبد الرزاق ابن حمادوش وحمدان بن عثمان خوجة. ولقد ربطنا دراسة الطب بالصيدلة لأن العلماء جمعوا بين الاثنين، وكان الطبيب يصنع الأدوية ويركبها من الأعشاب أو الزيوت المستخلصة من النبات، أو أعضاء الحيوان، في إطار معجنات أو أشربة. وجل المصنفات التي كتبت في الطب تحمل مفردات الأعشاب، وأغلب العلاج يكون بالعقاقير أو أتباع الحمية. وقد خصص ابن حمادوش جزءا من كتابه حول الطب المسمى"الجوهر المكنون في بحر القانون"، للأعشاب وفوائدها في علاج الأمراض، ونقصد هنا الكتاب الرابع وهو كشف الرموز كنموذج الدراسة.

وربما دراسة مسألة علوم الطب والصيدلة بالجزائر خلال العهد العثماني تقودنا إلى إشكال آخر يمكن أن نعتبره نتيجة أو سببا مباشرا وهو مسألة عدم وجود مستشفيات (المارستان، أو بيمارستان) بالجزائر خلال العهد العثماني إذا استثنينا مستشفيات الآباء البيض-المنظمات الدينية المسيحية- الخاصة بالأسرى المسيحيين الموجودة داخل مدينة الجزائر، والتي يرفض الجزائريون قصدها للمعالجة. كما أنه لم يتم إلى حد الآن الحصول على وثيقة وقفية تخص مؤسسة صحية بالجزائر، ونعلم جيدا أهمية الأوقاف في الرعاية الصحية بالبلاد العربية بالمشرق والمغرب العربيين. ولقد وقفت بنفسي على ذلك خلال إعدادي لأطروحة الدكتوراه حول الأوقاف بمدينة الجزائر[1]. واتفق جميع الإخباريين الأوروبيين أن مدينة الجزائر تفتقد إلى بناء ما يسمى مستشفى حيث يذكر لوجي دو تاسي في بداية القرن الثامن عشر أنه لم ير ولا طبيبا واحدا داخل مدينة الجزائر أو في بقية المملكة[2]. واتفق الجميع على أن الجزائر تجهل تماما التطورات الحديثة عن الطب في أوروبا، لا يوجد أية مدرسة في الطب ولا حتى مستشفى. فإلى أي مدى كان هذا الحكم صحيحا؟.

www.manaraa.com

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 20 - 53
-wafia@live.f

1- علوم الطب والصيدلة بالمغرب الأوسط خلال الفترة الوسيطة:

يصنف علم الطب ضمن العلوم العقلية، وقد أفرد له عبد الرحمان ابن خلدون حيزا في مقدمته، حيث خصص له الفصل التاسع عشر في علم الطب، وصنفه ضمن فروع الطبيعيات، حيث قال: «صناعة الطب وهي صناعة تنظر في بدن الإنسان من حيث يَمْرَضُ و يَصِحُّ فيحاول صاحبها حفظ الصحة وبُرْءَ المرض بالأدوية والأغذية بعد أن يتبين المرض الذي يخص كل عضو من أعضاء البدن وأسباب تلك الأمراض التي تنشأ عنها وما لكل مرض من الأدوية مستدلين على ذلك بأَمْزِجَةِ الأدوية وقُوَاهاَ...محاذين لذلك قوة الطبيعة فإنها المدبرة في حالتي الصحة والمرض وإنما الطبيب يحاذيها ويُعِينُها بعض الشيءِ بحسب ما تقتضيه طبيعة المادة والفصل والسن ويسمى العلم الجامع...» [3]. وعرفت علوم الطب والصيدلة اهتماما كبيرا من جانب علماء العرب منذ بداية الدولة الإسلامية، وقد اشتهر من بينهم العديد من العلماء الذين جمعوا بين العلوم النقلية وعلم الطب، وهناك من مارسه من طبابة وجراحة وتركيب للأدوية من الأعشاب الطبية، كابن سيناء، في "الشفاء" و"القانون في الطب"، وابن البيطار[4] في "الأدوية المتفرقة والجامع في الأدوية والأغذية"، والأنطاكي،[5] "تذكرة أولى الألباب"، وابن الجزار(ت.395هـ) " المعدة وأمراضها ومداواتها"، وغيرهم.كما اشتهر ببلاد المغرب والأندلس العديد من العلماء كان لهم باع طويل في علم الطب والصيدلة، كان أشهرهم في الأندلس ابن زهر الإشبيلي(464-557هـ)[6]. وعرف المغرب الأوسط، تطورا في العلوم العقلية عامة في فترة حكم الدولة الحمادية، والموحدين، حيث أنتج تراكم معرفي لعلماء العصر الذي أثر على الإنتاج المعرفي خاصة خلال فترة حكم الدولة الزيانية خلال القرنيين 8-9هـ/14-15م، حيث برزت مجموعة من العلماء الذين تعلموا الطب ودرسوه وتفقهوا فيه، فانتشرت مدارس الطب، والمارستانات في كل من تلمسان وبجاية، وذلك لارتباطها بالأوقاف الإسلامية، والاهتمام من جانب السلاطين؛ وتعددت طرق العلاج، وقد برع الكثير في الصيدلة وتحضير الأدوية عن طريق الأعشاب الطبية لمعالجة الأمراض التي كانت في ذلك العصر[7]. اعتنى علماء تلمسان بالعلوم العقلية والطبيعية، الفرائض، والحساب، والجبر، والهندسة، والمنطق، والطب، والكيمياء، والفلك، وغيرها. فقد عرفت هذه العلوم نهضة ملحوظة بتلمسان نشطها العلماء بتشجيع السلاطين والأمراء، ودعمها بعض علماء الأندلس الذين اختاروا عاصمة بني زيان موطنا لهم، ونبغ البعض منهم فكانت لهم شهرة واسعة تخطت حدود الدولة الزيانية[8]. أما عن كتب الطب المدرسة، كتاب القانون لإبن سينا وأرجوزة في الطب، وكتاب تقويم الأغذية فيما اشتهر من الأعشاب والعقاقير والأغذية ليوحنا بن يختيشوع، وكتاب التصريف لمن عجز عن

www.manaraa.com

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 20 - 53
-wafia@live.f

التأليف لأبي القاسم خلف بن عباس الزهراوي، وشروح أرجوزة ابن سينا، والموجز في الطب لإبن النفيس[9].

ومن بين المصنفات الطبية التي ظهرت في تلك الفترة نذكر: حسن بن علي بن قنفد(750هـ/1349م)[10] ، ألف في مجال الطب سماه "المسنون في أحكام الطاعون"، ذكر فيه الوباء وأحكامه الشرعية وكان سبب تأليفه هو اختلاف الطلبة في الفرار من مرض الوباء، ويصنف ضمن النوازل الفقهية[11]. وابن قنفد الخطيب-ابن قنفد الأب(ت. 810هـ/1407م)، له تأليف في الطب سماه "أنس الحبيب عند عجز الطبيب" وكتاب آخر سماه أرجوزة في الطب"، وألف أرجوزة في الأغذية والأشربة، وتتألف من مائتين وثمانية وتسعين بيتا. ومحمد بن ابراهيم الإمام أبي الفضل التلمساني(ت 845هـ/1442م)، ونذكر مؤلف أبو اسحاق ابراهيم بن أحمد الثغري الذي عاش في القرن الثامن هجري(الرابع عشر ميلادي) بعض المؤلفات حول الأدوية ومنافعها، وقاموس للأعشاب الطبية[12] ، مخطوط بالمكتبة الوطنية رقم 1777. واشتهرت مدينة تلمسان أيام حكم يوسف بن يعقوب بمصحة للتكفل بالمصابين بالإمراض العقلية، وكانت الموسيقى وسيلة شفاء، كما وجدت صيدلة كانت تتوفر على أدوية متنوعة[13].

2- واقع علوم الطب والصيدلة بالجزائر خلال العهد العثماني:

يذكر حسن الوزان في بداية القرن السادس عشر أن العلوم الطبية كانت تدرس بمدارس مدينة تلمسان، وهناك إقبال من جانب الطلبة على دراسة هذه العلوم حيث يقول: «وكثيرا من الطلبة والأساتذة في مختلف المواد، سواء في الشريعة أو في العلوم الطبية، وتتكفل المدارس الخمس بمعاشهم بكيفية منتظمة»[14] ، حيث أشار أنه كانت توجد بتلمسان مساجد عديدة جميلة صينة، لها أئمة وخطباء، وخمس مدارس حسنة، جيدة البناء مزدانة بالفسيفساء وغيرها من الأعمال الفنية، شيد بعضها ملوك تلمسان وبعضها ملوك فاس[15].

لكن خلال العهد العثماني حيث ضمت الجزائر للدولة العثماني منذ 1519م على يد خير الدين بربروس، لا نجد ذكرا لمدارس الطب أو طلاب الطب، فقلت المدارس وطلاب العلوم العقلية عامة وعلم الطب خاصة، حيث يشير هايدو(Hoëdo) (1578-1581م)، إلى غياب مهنة الطب تماما فلا يوجد بالجزائر بأكملها من له خبرة في تضميد الجراح وإيقاف النزيف و أن جميع من يقوم بالعلاج (سماهم الجراحين) مسيحيون، أما بالنسبة للجزائريين نجد اثنان فقط، أحدهم مرتد عن المسيحية أصله من جنوة يدعى شعبان، وآخر أندلسي أصله من بلنسية، وكلاهما يجهلان مهنة الطب[16]. ويضيف أنه لا

www.manaraa.com

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
wafia@live.f-

يوجد بالجزائر على الإطلاق مستشفيات، على غرار ما هو موجود بتركيا ومصر، أين كانت تمنح المأكل والمأوى لبضعة أيام للفقراء والمساكين[17]. وربما كان يقصد هنا الملاجئ الصحية التي كانت معروفة بأوروبا، أو التكايا(مفرد تكية) المعروفة في مصر وتركيا. ثم يعود فيقول أنه توجد بمدينة الجزائر دار يمكن أن نطلق عليها مستشفى، بناها حسن باشا بن خير الدين سنة 1549م؛ تتألف الدار من خمس غرف، اثنتان منها بالطابق الأرضي، والثلاثة الباقية بالطابق الأول لا تتوفر على أدنى الشروط الصحية، تنعدم بها الأسرة والأدوات الطبية، وقد كلف أسير مسيحي بخدمة وحراسة الدار[18]. وقد ورد في المراجع أن حسن باشا قام ببناء مستشفى وحمام كبير على غرار الحمام الذي بناه والده في إسطنبول[19] ؛ وكما يبدو أن هذه الدار لم تكن مستشفى بل مأوى للفقراء والمساكين وعابري السبيل، ونظرا لعدم استقرار حسن باشا بالجزائر وصراعه الشديد مع الانكشارية جعله يهمل الاعتناء بهذه الدار وترقيتها إلى مستشفى. والملاحظ أيضا أن مستشفيات العثمانيين كانت مأوى للمتقاعدين من الجيش الإنكشاري والعجزة. وفي بداية الاحتلال نجد الطبيب شونبيرغ، وهو أحد أطباء الحملة الفرنسية على الجزائر سنة 1830، خلال تعداده للمستشفيات الموجودة داخل مدينة الجزائر، أن هناك مستشفيان للجزائريين، واحد داخل المدينة والآخر خارجها يبعد عنها بحوالي مرحلة، ولقد سمى الأول المستشفى العربي الحضري، كان يحتوي على 75 مريض، كان المرضى ينامون فوق الحصائر، وبعضهم ينام على الأرض[20]. وفي موضع آخر يذكر نوع آخر من المستشفيات المستشفى الإسلامي، الذي أمام باب الواد، كانت في السابق تمثل المستشفى الحضري، يتألف من قاعتين كبيرتين كانتا تابعتان لأحد المساجد، كانت القاعة واسعة لكنها لم تكن تحتوي على الأثاث المناسب للمستشفى، ولم تكن بها لا هواء ولا ضوء بالإضافة إلى ذلك كانت ملاصقة لمقبرة من الجهة اليمنى واليسرى[21]. ويبدو أن هذا المكان هو في الأصل أحد المساجد أو الزوايا، اتخذته إدارة الاحتلال كمستشفى للجزائريين، ويرجح أنه مسجد الجنائز،وهو مسجد الحاج باشا الذي جدده سنة 1545م، حيث كان يصلى به على الميت قبل دفنه في مقبرة باب الواد، حولته سلطات الاحتلال الفرنسي إلى مستشفى مدني سنة 1836م ثم جزءا من المخزن المركزي للمستشفيات العسكرية[22]. ويشير الطبيب الأسير سيمون بفايفر الذي كلفه الداي حسين والخزناجي برعاية الجرحى بعد نزول الاحتلال الفرنسي بسيدي فرج، وانهزام الجيش الجزائري في معركة سطاوالي، أن السلطة العثمانية قد حولت الثكنات العسكرية إلى المستشفيات، التي استقبلت عددا كبيرا من الجرحى، وطلب منه الداي حسين(1818-1830م) أن يقوم بالعناية بهم وتضميد جراحهم، وعلى حد قوله أنه ليس لديهم أطباء، وأنه الطبيب الوحيد في تلك الثكنة العسكرية التي كانت تحوي ما يقرب ألف جريح عند دخول الفرنسيين مدينة الجزائر[23].

www.manaraa.com

نجد أن الاستنتاج الذي أقره هايدو حول الواقع الصحي بالجزائر أواخر القرن السادس عشر، سوف يأخذ به من جاء بعده من الرحالة والقناصل الأوروبيين حتى علماء الطبيعة والأطباء خلال القرنيين السابع عشر والثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر. فتكاد أن يكون إجماع لدى هؤلاء، مفاده أنه لم يكن بالجزائر أطباء، ولا تتوفر على مدرسة واحدة لتعليم الطب، ولا مستشفى أو ما يشبهها، ولم يكن وجد من يهتم بالطب، لكن في نفس الوقت نجدهم يدونون الكثير من المعلومات حول طرق العلاج التقليدية التي كان يمارسها المجتمع عن طريق بعض الأفراد الذين ورثوها عن الأجداد. واتفق جميع الإخباريين الأوروبيين أن مدينة الجزائر تفتقد إلى بناء ما يسمى مستشفى حيث يذكر لوجي دو تاسي في بداية القرن الثامن عشر أنه لم ير ولا طبيبا واحدا داخل مدينة الجزائر أو في بقية المملكة. واتفق الجميع على أن الجزائر تجهل تماما التطورات الحديثة عن الطب في أوروبا لا يوجد أية مدرسة في الطب ولا حتى مستشفى[24] ، ولا يوجد طبيب رسمي ما عدا الباش جراح[25] ، ونفس النتيجة ذهب إليها هنري كلاين[26] واستثنى البعض منهم في ذلك المستشفى الاسباني الذي كان بيد الرهبان خاص بالأسرى المسحيين[27]. وقد ذُكِرَ في مؤلف حول أسواق مدينة الجزائر وأشار إلى "فراير متاع لسبطال" ويقصد بهم الرهبان المنتمين لمنظمة الإخوان البيض والقائمين على خدمة المارستنان المعروف بلغة الفرنكا "اسبطال"[28]. وكان لا يقصده السكان إطلاقا وأشار الدكتور توماس شو (D. Shaw)(1720-1732) إلى عدم وجود أطباء أكفاء بل هم مجرد عطارين يداوون بالأعشاب[29]. ربما هذه الملاحظات قد تثبت ما سكتت عنه الوثائق فيما يخص أوقاف الرعاية الصحية، فكثيرا ما ضربت الأمراض والأوبئة مدينة الجزائر ومات من جرائها الآلاف من الناس ولم تخبرنا المصادر عن طرق الوقاية منها مثل الحجر الصحي الذي كان معمولا به في تلك الفترة بأوربا. وفعلا كانت بعض الطرق في التداوي اختلطت بها الخرافة ووجد من ضمن الوثائق بعض التذكارات في الطب النبوي[30]. والغريب أن بعض الحكام كانوا يعرفون ويقدرون قيمة التداوي ويكافئون عليه، ويهتمون بشؤون صحتهم؛ فقد ثبت عن بعض الحكام أن حسين باشا كان لديه طبيب أوروبي وأن علي باشا استبقى طبيبا أسيرا ليعالجه، وعن صالح باي، باي قسنطينة أنه اشترى طبيبا أوروبيا وقع في الأسر بثمن عال[31]. وقد عدد مصطفى خياطي الأطباء الأسرى الأوروبيين بالجزائر خلال العهد العثماني[32] ، ومن بينهم سيمون بفايفر وهو طبيب ألماني أسير، كان الطبيب الخاص للخزناجي في فترة حكم الداي حسين(1818-1830)، وكتب مذكراته حيث عاصر الحملة الفرنسية على الجزائر وقد تم الإشارة إليه أعلاه.

www.manaraa.com

أ- **المصنفات الطبية الجزائرية خلال العهد العثماني:** تميز الإنتاج العلمي لعلماء الجزائر في العلوم العقلية وخاصة في مجال الطب عامة أي المعالجة من الأمراض بالقلة إذا لم نقل الندرة بالقياس ما عرفه القرن التاسع الهجري(الخامس عشر ميلادي) كالحساب والفلك، والطب، والصيدلة، والهندسة. ويبدو أنها كانت ظاهرة عامة بالعالم الإسلامي في تلك الفترة، حيث يرى البعض أن تزمت العلماء داخل الدولة العثمانية ومعارضتهم حدت من إمكانية استفادة العالم الإسلامي من التطورات العلمية في الغرب حيث كانت تصدر الفتاوى في حضر الكتب الفلسفية وجميع المعارف العلمية وعلى الرغم من أن بعض أفراد الطبقة البيروقراطية والأطباء، والمعتنقين الجدد للإسلام في الدولة العثمانية شجعوا على ترجمة الكتب من الجغرافيا والطب من اللغات الغربية إلا أن جهودهم بقيت محصورة. وأن العثمانيين لم يتعرفوا على تقدم الطب والصيدلة في أوروبا إلا في القرن السابع عشر وذلك من خلال الترجمات من اللغات الأجنبية إلى التركية والعربية[33] ، فجميع البلاد التي خضعت للحكم العثماني قد عرفت ركودا علميا وانخفاض مستوى الخدمات الصحية والتطبيب، بحكم أن الدولة العثمانية عسكرية بالدرجة الأولى.

وعلى الرغم من الواقع الذي كانت تعرفه العلوم العقلية بالجزائر، من تقصير من جانب العلماء إلا أننا نجد بعض المصنفات في الأمراض، والأعشاب الطبية، كما شمل الأمر أيضا الطب النفسي أو الروحاني.

المصنفات:

- سعيد المقري، يرى تلاميذه ومعاصروه أنه كان يجمع بين العلوم النقلية والعقلية، ولا سيما الطب والتشريح، والهندسة، والفلاحة، والتنجيم[34].
- محمد ابن أحمد المعروف بابن مريم التلمساني[35] ، كتب في الطب منها فتح الجليل في أدوية العليل[36] .
- محمد بن سليمان عاش في منتصف القرن الحادي عشر، جمع أيضا بين العلم والتصوف، ونظم بحرا في الموازين والمكاييل الطبية والشرعية. نقل عنه محمد السنوسي في شرحه لحديث المعدة[37].
- محمد بن أحمد الشريف، كتب في التصوف ورسالة في الطب النبوي وسماها "المن والسلوى في تحقيق معنى حديث لا عدوى" رسالة صغيرة تقع في ثلاثة عشرة ورقة حلل فيها الحديث المذكور وانتصر فيها للطب النبوي. أهداها للسلطان العثماني أحمد سنة 1149هـ/1736م[38].

www.manaraa.com

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 20 - 53
-wafia@live.f

- أحمد بن قاسم البوني، خلط بين الطب المعروف والطب الروحاني، من أعماله "إعلام أهل القريحة في الأدوية الصحيحة"، الذي ألفه سنة 1116هـ/1704م، وقد حصل أبو القاسم سعد الله على جزء منه فقط من أوله لأن أوله هو نهاية الحديث عن أمراض العين ويأتي بعد ذلك الحديث عن أمراض الأذن[39].
- عبد الله بن عزوز المراكشي التلمساني[40] ، من العلماء الذين برعوا ومزجوا أو دمجوا في معارفهم العلوم النقلية والعلوم العقلية، وميزة هذا العالم أنه كان مولعا وغارقا في التصوف، فقد جمع بين علوم التصوف وعلوم الحكمة ومنها الطب والفلك وغيره[41]. له تأليف في الفلك يحمل عنوان "أثمد البصائر في معرفة حكمة المظاهر"[42]. ويعتبر ابن عزوز المراكشي من الذين أتقنوا الطب وألفوا فيه من خلال مصنفه "ذهاب الكسوف ونفي الظلمات في علم الطب والطبائع"، وقد بين في المقدمة أسباب التأليف: «... فقد اختلج في صدري لما نحن بسبل كشفه من معاني الطب والطبائع والحكمة...وعمل مما لا بد الذكر لطالب هذا العلم الشريف والله يعصمنا من الأباطيل»[43]. ينقسم الكتاب إلى سبعين بابا منها أبواب في الطبيعة وعناصرها، وفي علم الحكمة، وفي علم التوليد بسبب المزاجات والأخلاط، وفي حديثه عن الطب فصل في ذكر العلاج لكل مرض[44]. وقد خصص الباب الأول للطب التجريبي، والباب الثاني للطب النفسي الروحاني، حيث قال: «...اعلم أيها الناظر أن لون الشعر دليل قاطع على معرفة المزاج والطبع وذلك لا شك فيه إذ من كان شعره أبيض كان مزاجه رطبا»[45]. وجعل آخر باب في صفة المعدة وأمراضها وعلاجاتها[46] ، ويبدو أن هذا المصنف أعد كمرجع لطلاب علم الطب.
- محمد بن علي بن باديس الصنهاجي، ألف كتابا في الأدوية ومنافعها سماه "المنافع البينة وما يصلح بالأربعة أزمنة"[47] ، وقد بنى عمله على قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «العلم علمان علم الأديان وعلم الأبدان»، قسمه إلى ثمانية أبواب.

نجد أن في كل عصر أو قرن يظهر عالم أو عالمان دونوا في الطب، وقد دمج هؤلاء بين العلوم النقلية الشرعية وعلوم العقلية وألفوا في الطب؛ وهذا إنما يدل على أن الاهتمام في البداية كان التفقه في الدين ثم التصوف وهي سمة العصر، أما، الطب والصيدلة فيمكن اعتبارها هواية، أو رغبة البعض منهم تعلم العلوم العقلية التي كانت غائبة في العصر، وهذا ما أكد عليه عبد الرزاق بن حمادوش في رحلته وحمدان بن عثمان خوجة في رسالته، وسوف نتعرض لهما بالتفصيل.

www.manaraa.com

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 20 - 53
-wafia@live.f

وتجدر الإشارة أن تدوين علماء الجزائر في الطب والصيدلة، لم يكن ناتج من فراغ، فالملاحظ أن هؤلاء لم يركزوا على الأمراض العادية التي قد تصيب كل إنسان مثل الحمى، وأمراض المعدة، وغيرها لكن نجد أن أغلبهم كتبوا في وباء الطاعون، وأشار دكتور شو إلى وصفة طبية للعالم محمد زروق للوقاية والمعالجة من وباء الطاعون، وهي الوصفة الوحيدة جاء فيها ما يلي:« حياة جميع البشر في يد الله، وعندما يحضر الموت أحدهم لا مقدم لذلك ولا مؤخر، لكن يجب أخذ الحيطة والوقاية من الطاعون، وذلك بأخذ في كل صباح وطيلة فترة تواجد الوباء قرصا أو قرصين، يحضر بالطريقة التالية: جزئيين من شجر المر، وجزء من الزعفران، وجزئيين من نبتة الصبر، وكمية من شراب حبوب الأس العطرية »[48]. ويشير حمدان بن عثمان خوجة إلى الطريقة التي كان يحترز بها عند انتشار الطاعون بمدينة الجزائر ، الذي تكرر أزيد من عشرين سنة وذلك في النصف الأول من بداية القرن التاسع عشر، وقد نقل تجربته الشخصية في ظل عدم احترام وتطبيق قاعدة الحجر الصحي(الكرنتينة): «وقعت الوباء في الجزائر وأنا بها فألتزمت بأقل مما يحتاط الفرنج، فكنت أصلي الجمعة وأحضر الجزائر مع أصحابي، وأقاربي من غير أن أقتحم مجتمع الناس، ولا أمسّ أحدا ولا قماشا. ثم أرجع وأتبخر فسلمني الله سبحانه أنا ومن معي»[49].

علماء الجزائر ووباء الطاعون: كان الطاعون من بين أخطر الأوبئة التي استوطنت الجزائر طيلة فترة الحكم العثماني، وقد فتك بالكثير من الناس. ونتج عن إهمال علماء الجزائر لعلوم الطب، وعدم الأخذ بطرق العلاج وخاصة الوقاية من الأمراض والأوبئة من جانب السلطة الحاكمة تعرض الجزائر إلى هزات عنيفة من الأوبئة خاصة وباء الطاعون الذي لازمها طيلة الوجود العثماني، وأرهق العباد والبلاد. فقد كان يجتاح الجزائر بصفة مكررة من 10، إلى 15، إلى 25 سنة ويسمى بالوباء المستوطن[50] وتسبب في الكثير من الوفيات والخراب. ومن بين المصنفات العلمية التي ركزت على وباء الطاعون نذكر: نظم أحمد بن سحنون قصيدة في الطاعون الذي اجتاح سنة 1202هـ/1787م مما اضطرّ إلى مغادرة مدينة معسكر فارا تركا وراءه أوراقه[51]. و تأليف أبو رأس الناصري "ما رواه الواعون في أخبار الطاعون"، ويبدو أنه جمع فيه ما قيل عن الطاعون وأضراره، ولعله قد استوحاه أيضا من طاعون سنة 1202هـ لأنه كان عندئذ بمعسكر.

محمد بن رجب الجزائري جمع سنة 1200ه رسالة سماها "الدر المصون في تدبير الوباء والطاعون"[52]. لا ندري حجم هذه الرسالة لكن يبدو أنها مهمة فقد طالع صاحبها كتبا عديدة في الطب مثل القانون لإبن سينا، وتذكرة الأنطاكي، ومفردات ابن البيطار حول الوباء والطاعون. إضافة إلى مؤلف العربي بن عبد القادر بن علي المشرفي الغريسي[53] ، "أقوال المطاعين في الطعن والعواطين".

www.manaraa.com

وأشار الطبيب لوسيان لوكليرك أن لعبد الرزاق ابن حمادوش تأليف حول الطاعون، بناءا على شهادة أحد الأهالي ، وأكد له أنه قرأه[54].

ب- **الأطباء الجزائريين أواخر العهد العثماني:** يرى مصطفى خياطي أن هناك ثلاثة أنواع من الطب والأطباء في الجزائر خلال العهد العثماني، الطب الشعبي وهو التقليدي خاص بالسكان، والطب الأوروبي ويمثله الأسرى المسيحيون، وطب عثماني أنشىء لأغراض عسكرية، والذي مارسه الجنود الأتراك(55). والملاحظ أن الظاهرة العامة في بلاد المغرب الحديث، أن الطب بقي مدة طويلة حكرا على الأطباء الأوروبيين[56].

أدرج ألبار دوفو (Devoulx) في كتابه حول مدينة الجزائر شاهدا لقبر مكتوب عليه اسم طبيب وهو محمد بن سليمان الطبيب بن عبد الله وأضيف له وصف آخر هو "محمد بن سليمان طبيب كل عليل"[57]. هذا الطبيب الذي على ما يبدو كان مشهورا بين الناس بمعرفته للطب، وأنه كان يشفي الناس من الأمراض ،لكن لا نملك معطيات حول المكان الذي كان يمارس فيه مهنته وهل اقتصر عمله مع رجال الحكم أم كان يداوي جميع الناس، لكن الثابت أنه كان الطبيب الخاص للداي. وكان لهذا الطبيب قبة باسم المرابط الطبيب، وقد هدمها الفرنسيون، وهي فيما يقال قبة بناها أحد الدايات لطبيب كان له، حيث كان كبار المسؤولين يهتمون بشؤون صحتهم. كما يذكر دوفو أن إحدى العائلات في الجزائر تلقب ابن الطبيب[58].

أشار الطبيب شونبيرغ في بداية الاحتلال إلى وجود مجموعة من الأطباء الجزائريين، كما وصف بعض الصيدليات، حيث قال في مذكراته عندما عدد الأمراض المنتشرة في الجزائر وطرق علاجها عند الجزائريين، «سألت أطباء والجراحين الجزائريين»، «روي لي طبيب جزائري أن لديه سائلا نباتيا في معالجة مرض البواسير»[59]. كان عدد الأطباء حسب شونبيرغ اثني عشر شخصا اغلبهم لا يحسنون الكتابة، وكثير منهم لا يحسنون لا القراءة ولا الكتابة، قال أنهم يحصلون على إجازة في الطب بعد اجتياز امتحان بمراحل: يبدؤون في الغالب بالحجامة مثلما هو الحال في عدد من البلدان الأوروبية، ثم يشرعون بمزج المراهم ووضعها فوق الجروح، والمرحلة الثالثة ينتقلون لمعالجة الأمراض الداخلية[60]. أما عن الصيدليات فكان عددها ستة متوسطة بسيطة الحال، تحتوي على القليل من الأدوية[61]. أكد انه أحسن وأمهر الأطباء هو اسماعيل بن محمد، هو طبيب وصيدلاني[62] ، ويبدو انه بنى صداقة مع هذا الشخص حيث كان يلجأ إليه دائما في الاستفسار ومعرفة طرق علاج بعض الأمراض عند الجزائريين.وقال أنه أهداه نسخة من مخطوط وهي تلخيص لأحد كتب ابن سينا وأضاف إليها اسماعيل ملاحظاته الخاصة، وزودها

www.manaraa.com

بأسماء الأدوية المستعملة الآن عوض الأدوية التي كانت مستعملة في أيام ابن سينا، لكن تفتقد المخطوطة لصفحة العنوان[63].

كانت ممارسة الجزائريين للطب، تتنوع ونجد من بين الممارسات الطبية التي كانت سائدة بالنسبة لطب النساء هي القابلة، فكان النساء القوابل معروفات بالمهارة[64] مهنة تتعلم بالتجربة، وتنتقل بالوراثة من الأم إلى البنت، أو من الحماة إلى الكنة، وكان عددهن لا يحصى[65].

ج- أسباب عزوف علماء الجزائر عن علوم الطب والصيدلة: يمكن القول أن علوم الطب لم تلق العناية الكافية واللائقة خلال العهد العثماني سواء من جانب العلماء أو من جانب السلطة السياسية(الحكام العثمانيين)، فهي لم تكن غائبة تماما مثلما أقره الإخباريون الأجانب، ويمكن أن نرجع هذا إلى عدة أسباب أشارت إليها بعض المصادر، والباحثون منها:

- تفضيل أغلب علماء الجزائر خلال العهد العثماني العلوم النقلية(الشرعية) على العلوم العقلية(العلمية) خاصة الطب، لم يلق ذلك الاهتمام ولم تكتب فيه الكثير من المصنفات إلا ما نذر وهذا ما لاحظناه أعلاه، فمن بين علماء الجزائر قلة منهم من يعرف المنطق، والفلسفة، والرياضيات، والفلك وهي ظاهرة عمت العالم الإسلامي، حيث يعتقد البعض أنها تتعارض مع الدين، ولقد عارض العلماء في الدولة العثمانية، وعلى رأسهم شيخ الإسلام في عهد السلطان مراد الثالث وجود مرصد فلكي، لأن علم التنجيم والفلك يتعارض مع الدين ولا يجلب أية فائدة، مثله مثل السحر وكشف الطالع، وقد استغل حينئذ شيخ الإسلام انتشار مرض الطاعون ليكتب إلى السلطان يثبت له أن هذه المحاولات الجريئة للتغلغل في أسرار الخالق، هي التي سببت الطاعون، وهكذا قامت في عام 1580 مجموعة من الإنكشارية بتدمير هذا المرصد، وتحويله إلى أنقاض[66]. فكانت هذه الظاهرة عامة حيث يرى هايدو(Haëdo) بأنه لا يوجد في زمانه مدرسة تدرس هذه العلوم أو بعضها لا في البلاد العربية ولا في تركيا ولا في إيران[67]. ونجد أن هذه الظاهرة مست الدولة العثمانية نفسها والولايات العربية التابعة لها كمصر وبلاد الشام. وقد أشار ابن حمادوش في رحلته عندما أراد أن يبرع في علم الطب والفلك وأخذ الإجازات العلمية فيهما، فلم يجد في تطوان من يتقن هاذين العلمين: «وسئلت عن علم الفلك فلم يكن له متقن...وأما في الحساب والطب والهندسة فلم أرى من يبحث عنها فضلا عن من يتقنها»[68]. وقد عاب على سيدي محمد القسنطيني إدعاء علم التنجيم الذي اشتهر به، وقال عنه عندما لقيه بمدينة فاس لمدة ثلاثة أيام وناقشه في بعض العمليات الفلكية، والجداول: «فوجدت عنده دعوى أكبر من علمه...ولم أجد عنده من العلم ما يغني ففارقته ولم يتعلق قلبي به. وإنما كثرت دعوته بكثرة الكتب...»[69].

www.manaraa.com

- فمن الأسباب أيضا اعتقاد البعض، ومنهم العلماء أن علم الطب مقصور على الأوروبيين وأن ليس له فائدة دينية مثل العلوم النقلية وهذا ما عاب عليه حمدان خوجة علماء عصره الذين يرفضون العلوم الأوروبية، ووصفهم بالجهل والتعصب[70]. لاحظ بانانتي الإيطالي أن أهل الجزائر يعتقدون أن كل أوروبي طبيب[71]. وقال الخزناجي للأسير سيمون بفايفر عندما عرف أنه طبيب جراح إنها مهنة تدر الأموال على صاحبها وخاصة في الجزائر، حيث لا يوجد طبيب ماهر بعد أن انتهى فن الطب العربي[72]. وهذا دليل قاطع على أن الحكام كانوا يثقون في الأطباء المسحيين ولا يعتمدون اطلاقا على الأطباء الجزائريين.

- سيطرة فكرة القضاء والقدر على أغلب فئات المجتمع، كانوا يستسلمون للقدر باعتبار المرض عقابا إلهيا. لكن بالمقابل نجد بعض الناس كانوا يؤمنون بالعلاج والتداوي واتخاذ الوسائل والأسباب للمحافظة على الصحة، وأولئك المؤمنون بالحديث المنسوب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم«العلم علمان علم الأديان وعلم الأبدان»[73].

- سيطرة الطب الشعبي[74]، أو الطب النبوي في أوساط المجتمع، وسادت الممارسات الطبية التقليدية التي توارثها المجتمع وأصبحت جزءا هاما من موروثة الشعبي الثقافي والمعتقد في مجال علاج الأمراض المختلفة، وتفضيل التداوي بالأعشاب الطبيعية وهذا ما كان شائعا عند الجزائريين سواء بالمدينة أو الريف، ويروى البعض من الرحالة أن الطب في الريف كان أكثر نضجا ولقي اهتماما، ومهارة من المدينة خاصة في القمم الجبلية. فيرى الدكتور شو أن عملية تركيب الدواء لعلاج الأمراض يقوم بها العرب أهل البادية أفضل من أهل المدينة[75] ، وجاء عن هلتون سامبسون الذي قضى أربع سنوات في بلاد الجزائر وعاشر فيها سكان الريف والجبال، وبالخصوص سكان جبال الأوراس، وصاحب الأطباء الجزائريين في البلاد، وذكر عنهم الكثير في ميدان الطب وقال عنهم: «أن حرفة الطب بالجزائر يرثها الابن عن أبيه ولهم كتب قيمة في ميدان الطب ترجع في أصولها إلى علم الطب والجراحة لأطباء عرب من العصور الوسطى، وهي حرفة سرية أصحابها ماهرون في علم ثقب العظام، واستبدال عظام الإنسان بعظام الحيوان، ولهم دراية أيضا بطب العيون...ولهم دراية بعلم النباتات يجمع الطبيب بنفسه الأعشاب من الغابة ثم يجففها أو يقطرها ويزنها ويمزجها ويحضرها للمرضى»[76]. كما يرى أيضا مصطفى خياطي أن الطب الشعبي كان أكثر انتشارا في الريف ومارسته بعض الفئات الاجتماعية من سكان المدن[77].

- عدم وجود مدرسة خاصة بتدريس الطب، أو مستشفى بالجزائر، فعلم الطب لم يكن يدرس، ولا يهتم العلماء بالتأليف في الطب، بل يعتمدون على المصنفات الطبية السابقة[78] ، وهذا ما لاحظه جل الرحالة الأوروبيون الذين زاروا الجزائر خلال العهد العثماني، لم يكن بالجزائر أطباء جزائريون ولا مهتمون بعلم

www.manaraa.com

الطب حيث يقول وليام شالير قنصل أمريكا في الجزائر، أن علم الطب لا يوجد من يدعيه، وهذا إذا ما استثنينا المشعوذين وكتاب الحروز[79]. فالمسؤولين في السلطة لم يشجعوا على دراسة الطب، ولم ينشئوا أكاديميات طبية، ربما لتوفر الأطباء المسحيين وسهولة الحصول عليهم وجلبهم، إلى جانب وجود المستشفيات المسيحية التي كانت تتوفر على الأطباء والأدوية، أو أطباء القناصل الأوروبيين وكان الداي وبقية الموظفين في الدولة يستدعون الطبيب المسيحي للعلاج، فقد عالج طبيب سرديني، وهو الدكتور ميارديMeardi)(، عشرين مريضا كانوا قد جرحوا في إحدى المعارك بأمر من الداي، واستمر العلاج حوالي ثلاثة أشهر[80] ، كان أشهرهم أواخر العهد العثماني أسانسيAssensi)(. لكن هذا لم يمنع من وجود بعض الحكام منن اهتموا بالطب منهم الباي محمد الكبير باي وهران، حيث ثبت أنه كان يعتني بالطب ويشجع العلماء على التأليف فيه واختصار المطولات منه؛ فقد قال عنه كاتبه أحمد بن سحنون أنه كان للباي في الطب اليد الطولى، وأنه كان يصف للناس الدواء[81].

- عدم الاهتمام من جانب الحكام بالرعاية الصحية عامة، بحيث لم يكن يوجد بالجزائر منظومة صحية متكاملة مقننة تحت رعاية السلطة الحاكمة، بل ترك الطب وكل ما يتعلق به إلى عامة الناس، -لكن في نفس الوقت هناك من الحكام من اتخذ طبيبا خاصا مسيحيا- كما نجد أيضا أن القاعدة الصحية التي كانت معروفة في ذلك الوقت والمتمثلة في الحجر الصحي، لم تكن تحترم في أغلب الأوقات، ولم يساهم الحكام في تطبيقها بصرامة وحدة عند انتشار الوباء خاصة خارج الجزائر إذ يؤكد أن الوباء بالجزائر وخاصة منه الطاعون لا يوجد في الأصل في الجزائر، وإنما يحمل إليها من القسطنطينية، والإسكندرية، وأزمير، أو من غيرها من مدن الشرق، ومنها يجتاح البلاد بسرعة جنونية[82]. وعلى العموم لا يمكن أن نعمم هذه الظاهرة حيث تذكر المصادر أن بعض الحكام كانت لديهم مبادرات يجب أن تذكر في مجال الرعاية الصحية، فقد بنى حسن بن خير الدين باشا مستشفى أو اثنين كما أشرنا إليه سابقا، وذكر ابن حمادوش أن ابراهيم باشا(1732-1745م) قد فرض الحجر الصحي على مركب قادم من الإسكندرية بالحجاج ولم يأذن لها بالدخول إلا بعد أن تحقق من سلامتها من المرض بعد مرور خمسة عشر يوما[83].

- تعدد طرق العلاج الطبيعية التي لها علاقة بالحياة اليومية للفرد الجزائري وبنظافته خاصة سكان المدن، منها كثرة الحمامات بالجزائر ، ووفرتها خلال العهد العثماني، حيث اشتهر السكان بالنظافة، وكثرة ترددهم على الحمامات، فقد لعبت هذه الأخيرة دورا في الرعاية الصحية، و الوقاية والعلاج من بعض الأمراض، كان تعدادها داخل مدينة الجزائر وحدها من خمسين إلى ستين حماما-حسب تقدير البعض- بنى أغلبها الباشوات مثل حسن باشا بن خير الدين ومحمد باشا بن صالح رايس[84]. تعتبر الحمامات

www.manaraa.com

مرافق صحية إلى جانب كونها أماكن استحمام وراحة وتمثل فضاء اجتماعيا بمعنى الكلمة. أكد شو أن الحمامات تستعمل بشكل واسع لعلاج الكثير من الأمراض[85] ، منها الإمراض الزهرية، فبخار الحمام يجعلها تنحصر في مكان من البشرة، تسهل فيما بعد معالجتها في أغلب الحالات[86]. كما ذكر أيضا أهمية المعالجة بالحمامات المعدنية.

- الدور الذي لعبته الزوايا والأضرحة كملاجئ ومأوى للمرضى والعجزة والمعوزين كما كان في حالات الوباء والحروب يتجمع المرضى داخل الملاجئ التابعة للمساجد أو بالزوايا[87].

- إن شيوع ورواج ظاهرة الطب التقليدي(الشعبي) عند المجتمع الجزائري وتوفر وسائل العلاج من الكثير من الأمراض التي تصيب الإنسان بصفة دورية وعادية، فتحت المجال لوجود الكثير من الذين يعملون في تركيب الأدوية عن طريق الأعشاب، فتعددت أشباه الأطباء وتنوعت أسماؤهم(العطار، العشاب، الجراح، الراقي، الحجام، الجبار، الطالب) ، وكثرت محلات العطارة، وقد أشار الدكتور شو إلى دكان أو حانوت التبيب(الطبيب)[88]. نجد أن هذه المهنة كان يرثها الابن عن الأب، ونعلم جيدا أن الحفاف، أو الحجام(الحلاق) كان يمتهن إلى جانب مهنة الحلاقة، بعض الممارسات العلاجية منها قلع الضرس، والحجامة، وتركيب بعض الأدوية مكونة من الأعشاب، وختان الأطفال، حيث ذكر ذلك ابن حمادوش في رحلته، عند ختان ابنه[89]. يمكن القول أن العطار بائع الأعشاب والتوابل، والحفاف كانا يمارسان مهنة الطب، وتركيب الأعشاب، ووصف الأدوية والدهانات. والطرق التي كان يعالج بها الجزائريون الإمراض تشبه في كثير منها الممارسة في أوروبا أو في مناطق أخرى من العالم حيث كان شونبيرغ دائما يردد "مثلما هو موجود عندنا" "وهو ما يحدث الآن غالبا"، "ويستعمل الآن بكثرة"، "وهذه الطريقة معروفة في أماكن أخرى"[90]. وقد أشاد بطريقة الجزائريين في علاج مرض رمد العينيين، وهي ناجحة حسب رأيه[91]. ونجده في الأخير يعرف بمهارة الأطباء الجزائريين وهذه شهادة من طبيب متمرس، أن للجزائريين داخل مدينة الجزائر أو بالمناطق الأخرى من البلاد طرق ناجحة في معالجة أمراض معينة، ولقد تأكد الدكتور أسانسي(Assensi) من ذلك ولا سيما ما يتعلق بأمراض النقرس، والمفاصل، وأوجاع الحصوة[92].

- سيطرة ظاهرة التصوف، ورواج فكرة الحصول على البركة والشفاء من الأمراض عن طريق التوسل للمرابط وزيارة أضرحة الأولياء والصالحين، خاصة الذين يئسوا من العلاج. كما كان احترام سكان مدينة الجزائر للأولياء وعمق اعتقادهم ببركتهم، حتى أصبحت الأضرحة داخل المدينة في اعتقاد الناس، أماكن للشفاء لمعالجة مختلف الإمراض، سواء كانت عضوية كمرض الحمى والتهاب العين، والعقم بالنسبة للنساء، أو الأمراض العقلية أو النفسية كالجنون، والعين، والحسد، وساد في اعتقاد الناس أن بعض

www.manaraa.com

الأضرحة اختصت في علاج أنواع من الأمراض دون أخرى، فأشتهر ضريح علي الزواوي بالشفاء من الحمى، وعلاج العقم، وضريح يحي الطيار بشفاء الحمى والمس، أما ضريح سيدي يعقوب فكان مزارا للمسلمين واليهود يعتقد أنه يشفي كل الأمراض ويطرد الجن، وقد كان بالمقربة من ضريح سيدي عبد الرحمان الثعالبي شجرة خروب كبيرة يعتقد أن أوراقها تشفي الحمى[93].

لقد خلصت فلة موساوي في دراستها إلى أنه لم يكن يوجد بالجزائر خلال العهد العثماني أي تعليم طبي، حيث لم تتوفر الجزائر على أطباء يتقنون المعارف الطبية على غرار ما كان موجود بأوروبا، فممارسة العلاج حرفة كان يمارسها من يشاء بفعل الهواية والحاجة، فغالبا ما كان المداوي يعالج المرض وهو يجهل القراءة والكتابة[94] ، وهذه هي الصورة التي نقلها الرحالة الأوروبيين. وقد أكدت التقارير الفرنسية بعد الاحتلال الفرنسي انعدام المرافق الصحية المتمثلة في المستشفيات والمحاجر الصحية[95].

ويمكن أن نستنتج أن الوضع الصحي بالجزائر أواخر العهد العثماني كان بأفضل حال من الفترة الأولى للاحتلال الفرنسي للجزائر حيث زعمت الإدارة الفرنسية أنها أرست قواعد وأسس الرعاية الصحية من إقامة المستشفيات وتوفير الأطباء والأدوية لكن لم تساهم في تطوير الصحة العامة وأكدت الدراسات أن الوضع الصحي في فترة الاحتلال كانت أكثر سوءا ولم تكن بأحسن حال، كانت الظروف الصحية بعد عقدين من الاحتلال الفرنسي يرثى لها بعد إخماد الثورات الشعبية حيث فتكت أوبئة الجدري، والكوليرا، والتيفوس، أمراض الزهري والعين بالناس، كما أدى العنف في إخماد الثورة، ومصادرة أراضي الفلاحين إلى مجاعة وجدب، مع ما تلاه من انتشار للأوبئة[96].

3- مساهمة عبد الرزاق ابن حمادوش في النهوض بعلوم الطب والصيدلة:

هو عبد الرزاق بن محمد بن امحمد بن حمادوش، ولد سنة 1107هـ/1695م بمدينة الجزائر قال عن نفسه: «الجزائري الدار والمنشأ، الأشعري العقيدة، المالكي المذهب، الشريف نسبا»[97] عاش في منتصف القرن الثامن عشر، وقد امتهنت أسرته الدباغة، فكان فقيرا لأنه مارس العلم لا الدباغة[98].

يعتبر عبد الرزاق ابن حمادوش من علماء الجزائر خلال القرن الثامن عشر- قرن محوري بالنسبة لتاريخ الجزائر الثقافي- تصفه الكتب الغربية بالطبيب العربي. ركز اهتمامه على العلوم العقلية وألَمَ بها إلى جانب العلوم الفقهية، فقد برع في علم الفلك، والطب والصيدلة، والحساب حيث ألف "الرخامة الظلية"[99] ، كما ذكر أن له تأليف في المساحة والهندسة بعنوان "فتح المجيب في علم التكعيب"، حيث قال:«فأعملت فكري حتى أُخرجها فبدا لي أن ألف فيها»[100]. فيبدو أن ابن حمادوش

www.manaraa.com

أراد أن يلم بجميع العلوم والمعارف الجديدة التي يعزف عنها، ويتجنبها علماء عصره. فقد تعلم صنع البونبة، وأمور الملاحة البحرية وخارطة الريح، تعلم الإسطرلاب، وألف فيه كتاب، كما ألف في قوس الشمس، والفلك، وفي علم التكعيب، وفي صورة الكورة.كما ألف في التصوف حيث جمع بعض الأوراد الصوفية والأدعية في كتاب[101]. مساهمته في تأليف الكتب في العلوم العقلية لا تقل أهمية عن العلوم النقلية أيضا حيث كان بارعا في الفقه، فألف حاشية على ألفية ابن مالك[102] ، كما تبين من خلال ما ورد في رحلته أنه متفقه في الدين وله باع في الفتوى، والتعليق على بعض فتاوى العلماء فحين كان في تطوان، أجاز أحد العلماء وهو الشيخ امحمد البناني على ما دفع لقبور الصالحين من الصدقات فقال: «يدفع ذلك لينتفع به الفقراء والملازمون لذلك الضريح وأجازه وسكت» وكان رأي أبو ابن حمادوش في ذلك: «والذي كان عندي محقق في هذه المسألة أن الدافع لا يخل، أما أن ينوي به الميت فإنه يحرم، لان الميت لا يملك، أو ينوي به الفقراء الملازمين له فيأتي ما ذكره الشيخ من الجواز واللزوم»[103].ولم يكتف بقراءة كتب العلوم والفلسفة والمنطلق بل اهتم أيضا بالتاريخ فذكر أنه كان يقرأ مع العالم ابن ميمون تاريخ ابن الكردبوس في الخلافة العباسية وهو حسب أبو القاسم سعد الله هو لأبو مروان عبد المالك بن أبي القاسم التوزري من البلاد التونسية كان حيا سنة 575هـ له كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء، في جزأين[104]. واختصر كتاب "أنس الجليل في تاريخ القدس والخليل"، وألف في تاريخ الهجرة الشريفة، وهي بداية التاريخ الإسلامي وبين في الرحلة ما ناقشه في هذا التأليف من حيث تعريف التاريخ، والتأريخ عند العرب، إلى أن يصل إلى هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم واتخاذ عمر ابن الخطاب لبداية للتأريخ الإسلامي[105]. فهو عالم جمع بين العلوم النقلية والعلوم العقلية، وقد قال عن نفسه: «أدرس في كل علم وأخذته قراءة، ولم آخذ اجازة الكيميا والسيميا والموسيقى»[106].

تصنيف "ابن حمادوش" في الطب والصيدلة: برع ابن حمادوش في الطب والصيدلة، من خلال المصنفات التي تركها حيث أشار إلى هذا في رحلته. وقد كتب مؤلفا في ذلك وهو "**الجوهر المكنون في بحر القانون**"، بدأ في تأليفه في يوم الاثنين أول يوم من ذي الحجة 1157هـ/ 1744م، قال عنه أنه تأليف حسن في الطب[107]. لا نملك نسخة عن هذا التأليف، لكن أشار إليه في رحلته، كما نقل لنا مقدمة الكتاب جاء فيها: «الحمد لله العفو الرؤوف، الشكور الحليم العطوف، الباعث الرسل الكرام رحمة للأنام، الجاعل من الماء ترياق الحياة، من الحيات، ومعدل ما انحرف من المزاج، بالعلاج، والصلاة والسلام على من بسقت به المفردات، وأينعت به المركبات، وبعد، فهذا جوهر مكنون، من بحر القانون، يتوشح به الأصاغر، ولا تمجه الأكابر، والله المستعان، وعليه التكلان»[108]. وقال أنه قد قسمه إلى أربعة كتب:

www.manaraa.com

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 20 - 53
-wafia@live.f

الكتاب الأول في السموم وذوات السموم وعلاجها.

الكتاب الثاني: في الترياقات[109] وما يجري مجراها وما يجري مجراها إن وجد من البذزهرات(المعادن) وبعض المعاجين الذي يضطر إليه المرء.

الكتاب الثالث: في ترتيب الأمراض، حيث وضح فيه الأسباب، والعلامات، والعلاجات.

والكتاب الرابع: في حل ألفاظ المفردات وتعريفها.

الكتاب الرابع حسب أبو القاسم سعد الله، هو الذي وصل إلينا وقد طبع منفصلا بعنوان كشف الرموز في بيان الأعشاب.

وقد فرغ من تأليفه في يوم الاثنين الثامن عشر من ربيع الأول 1158هـ/(110) 1745، وبذلك يكون قد استغرق في تأليفه حوالي أربعة أشهر، ويبدو أنه انعزل وتفرغ تماما من أجل إتمامه، حيث قال: «وبقيت منكبا على التأليف المذكور»[111]. يبدو من خلال العنوان هو مكملا أو شارحا ومفصلا ومضيفا لكتاب القانون لابن سينا، فقد اعتمد عليه كثيرا.

ولقد قرأ العديد من كتب الطب فبل تأليف الكتاب وأخذ عنها، قراءة وتلخيصا، وتأليفا، وقراءته لكتب الطب هي من جانب أنه كان يعد نفسه للتخصص في علم الطب، ومن ناحية أنه لم يجد مدرسة لعلم الطب أو عالما يأخذ منه هذا العلم، وقد قرأ منها: كتب ابن سينا في الطب وقد نسخ جميع كتبه. وقد اطلع على كتاب الملطي في تاريخ الدول الذي ذكر فيه تاريخ العلماء والأطباء، ونقل منه تاريخ سابور بن سهل صاحب بيمارستان جند يسابور، وأشار أن له أيضا كتاب القراباذين الذي يعتمد عليه الصيادلة[112].

وقد ترجم في رحلته للعديد من علماء العرب، والإغريق الذين اشتهروا بعلم الفلك والطب، والهندسة، والجبر، والمنطق والفلسفة[113]. التقى بالشيخ سيدي الحاج عبد الوهاب أدراق[114] "الحكيم الكبير" وهو الطبيب الخاص للمولى اسماعيل والمولى عبد الله، في مدينة فاس خلال رحلته إلى المغرب الأقصى، نظم فيه قصيدتين ذكر في الأولى مناقبه، وفي الثانية كانت في حمى أصابت عبد الرزاق ابن حمادوش. أما عن المدة التي لازم فيها الشيخ فلم يذكرها لكن نقل لنا كثيرا من المعطيات حول عمل الحكيم الحاج عبد الوهاب أدراق كطبيب فإلى جانب كونه الطبيب الخاص لسلطان المغرب وحاشيته فقد كان يقصده العامة للعلاج ، فقد جعل وقت الضحى والعشية للمسلمين، ففي الصباح ينظر في

www.manaraa.com

رت م د: 2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
-wafia@live.f

القواوير الهراقية ويخبرهم بما يصلح بهم(تحليل البول بالنظر للقوارير)، وخصص العشية للأسئلة[115]. كما قرأ مؤلف الشيخ سيدي محمد السنوسي في شرح المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء وأصل كل الداء البردة[116].

كما أخذ عن حنين ابن إسحاق[117] في ترتيب الأمراض في الكتاب الثالث، وهو طبيب ومؤرخ[118]. كما قرأ كتب الإغريق في الطب: أبقراط، وجالينوس، وديوجينوس.

أما فيما يخص منهجه في علم الطب والصيدلة فيمكن القول أن عبد الرزاق ابن حمادوش قد استعمل المنهج التجريبي، في تجربة بعض الأدوية، ويجهز الدواء لنفسه، فعندما كان بالمغرب الأقصى أصابته حمى شديدة[119] ارتعدت فيها فرائصه، فوصف لنفسه الدواء وشربه على مراحل تمثل في: «ثلاثة أثمان من سكين كينة...دققت الثمن الأول وشربته في فنجال قهوة من البن، فلما استقر في بطني أمسكت الأعضاء كلها من الاختلاج إلا عرقا واحدا في يدي اليمنى بقي يختلج اختلاجا يسيرا. فلما شربت الثمن الثاني انقطع من كل عضو. ثم شربت الثمن الثالث فلم يبق ألم منها. إلا أنها لما كسر سورتها الدواء كأنها تعاندا وتدافعا فثقلت من شدة الحرارة وألزمني النوم. فبقيت كذلك إلى غروب الشمس، فانصرفت تلك الحرارة عني، والحمد لله »[120]. وقد قام بتركيب بعض الأدوية منها معجون سماه معجون الصلاح ومعجون الواحد، لكن لم يذكر المواد التي تحتوي هذه التركيبة ولأي علاج تصلح. كما أعد شراب المصطكي قال عنه أنه نافع جدا لجسم الإنسان لكنه يذكر لمن يوصف هذا الشراب، وفي أي الحالات يشرب، ومنفعته تقوم مقام الخمر ربما من ناحية تعديل المزاج(ربما تأتي في الهامش أو مهدئ للأعصاب وارتخاء الجسم) أخذه عن الحاج عبد الوهاب أدراق، أخذه عن أشياخه، يتكون هذا الشراب من: «أوقية مصطكى تطبخ في خمسة أرطال ماء حتى يبق أقل من النصف، ثم يصفى ويقلى عليه مثله العسل منزوع الرغوة ويطبخ حتى يكون قوام الأشربة ويحفظ. فتلقى أوقية منه في رطل من ماء ويشرب»[121].

أما فيما يخص سعة اطلاعه بالأعشاب وفائدتها الطبية في علاج الأمراض والتي أفرد لها كتاب "كشف الرموز" فقد ورد في الرحلة بعض الإشارات حول بحثه في الأعشاب، فكان يخرج إلى ضواحي مدينة الجزائر بعض العارفين بأنواع الإعشاب ليتعلم منهم منها جبل بومعزة تحت منطقة بوزريعة، فتعلم مثلا الأفيون الذي عرف عنه الكثير[122] ، وذكر اسم أحد العشابين الذين تعلم على يدهم ، وهو سيدي محمد كحنبل، وهو عشاب مدينة الجزائر[123]. فقد قال عن نفسه أنا عشاب وصيدلاني وطبيب في بعض الأمراض[124]. لكن لم نجد ضمن المصادر من يذكر أن ابن حمادوش مارس مهنة الطب، أو كان له دكانا يمارس فيه معالجة الناس.

www.manaraa.com

أهمية كتاب كشف الرموز في شرح العقاقير والأعشاب[125]: هذا العنوان الذي ورد في ترجمة كليرك[126] ،كما أشرنا أعلاه أن هذا التأليف هو جزء ضمن مؤلفه في الطب "الجوهر المكنون في بحر القانون"، الذي فقد فلم يبق إلا الكتاب الرابع الذي خصصه للأعشاب الطبية حيث قال الكتاب الرابع في الأدوية المفردة وشرح أسمائها. ويمكن أن نصنفه ضمن علم الصيدلة، حيث قال: «فالأعشاب المفيدة في تأليفي كلها معروفة عندي». يحتوي على كل الأمراض الشائعة والمعروفة في الجزائر في عصره وطرق العلاج والتداوي المعروفة آنذاك»[127].

صنف "كليرك" كشف الرموز ضمن تاريخ الطب الطبيعي، يعد قاموسا طبيا على طريقة المعاجم الأبجدية وضمنه مدخل في أنواع وأوصاف الأدوية، أسماء النباتات والعقاقير، والحيوانات، والمعادن صنف فيه الأدوية والإمراض التي يعالجها، إضافة إلى مختلف المعادن والعقاقير والنباتات والمصطلحات الخاصة بها عند السوريين، والمصريين، واليونانيين، والهند، وصل عددها إلى 987 مادة في مختلف الأنواع المذكورة، من الأعشاب، والمعادن، وأعضاء الحيوان، ويشمل على جميع الأدوية المعروفة في الجزائر في وقته،و ذكر خصائصه وفوائده العامة وفوائده الخاصة، كيفية استعماله والكمية الضرورية منه ومشتقاته، الأمراض التي يستعمل لها الدواء، يحدد منافع كل نبات(إن كذا صالح لوجع كذا)، يذكر مقادير كل دواء بالموازين الشائعة عندئذ[128]. كما سجل ما شاهده من غرائب النبات في مصر[129].

كان المدخل عبارة عن شرح المصلحات-المفردات-، وتبيان أنواع الأدوية ومصنفاتها وقد اعتمد حسب ما جاء في المقدمة على الكتاب الثاني من القانون لابن سينا:«الحمد لله قال في الجملة الأولى من الكتاب الثاني من القانون يجب أن نقدم هنا ما لا بد منه ثم قال في المقالة الرابعة في تعرف أفعال قوى الأدوية المفردة نقول أن للأدوية...» [130]. قام المؤلف بشرح مجموعة من المصطلحات من أجل استعمالها في تركيب الدواء من الأعشاب. وكمثال حول ذلك قال أن الأدوية المفردة أفعالا كلية وأفعالا جزئية وأفعالا تشبه الكلية. أما عن صفات الأدوية منها اللطافة والكثافة واللزوجة والهشاشة، والجمود والسيلان، واللعابية، والدهنية والنشف، والخفة والثقل، ثم فصل في كل واحدة حيث قال عن اللطيف: هو الذي من شأنه إذا انفعل من القوة الطبيعية التي فينا أن ينقسم في أبداننا إلى أجزاء صغيرة جدا مثل الزعفران والدارصيني...[131]. أما عن أفعال الأدوية، فقد تعددها في البداية، ثم قام بشرحها تتمثل أفعال الأدوية فيقال دواء[132]: مسخن ،ملطف، محلل ماء، مخشن، مفتح، مرخ، منضج، جاذب، مقطع، هاضم، كاسر الرياح، محمر، محلا، مقرح، اكال، محرق، لاذع، مفتت، معفن، كاو، مقشر، أضاف وظيفة أخرى: مبرد، مقو، رادع، مغلظ، مفجج، مخضر، وأضاف أيضا: مرطب، منقح، غسال، موسخ القروح،

www.manaraa.com

مزلق، مملس. وظيفة أخرى: مجفف، عاصر، قابض، مسدد، مغر، مدمل، منبت للحم، خاتم[133]. وقام بشرح كل فعل من هذه الأفعال بالأدلة والأمثلة.

كما بين ابن حمادوش في مصنفه طريقة صنع الأدوية وتحضير الأعشاب، وكيفية حفظها، وجعلها صالحة للاستهلاك، وذلك حسب المناخ والمناطق المتواجدة فيها، وكذلك حسب فصول السنة كقوله: «في الأماكن المعتدلة يكون أخذها في وسط الربيع ولا تجمعها إلا بعد استحكام نضجها في مكانها...وفي البلاد الحارة في آخر الشتاء وفي البلاد الباردة أول الصيف»[134]. وأوضح طريقة تحضير الأعشاب، والمعادن، والحيوان، حيث قال عن النبات: «وإذا أخذت الأعشاب فتنظفها من طينها وتجففها أولا في الشمس ولا يتم تجفيفها إلا في الظل فإذا جفت حفظتها في صناديق الخشب أما البذور فتجعلها في خرائط الجلد...»[135].

بدأ المؤلف معجمه حول الأعشاب الطبية بحرف الألف، وأول عشبة كانت «أكليل الجبل، وهو المعروف عندنا بإكليل وهو محلل مفتح حريق ينفع الخفقان والسعال والاستسقاء محلل الأورام الحارة لأنه حار يابس في الأول وقيل في الثانية بدله زهر بابونج وشربته إلى خمسة دراهم وبدله أيضا مثله اسفنتير ونصفه ..»، وفرق بينه وبين اكليل الملك «هو نبات له زهر أصفر شبيه بورق النفل إلا أنه رقيق..وصحح الأنكاطي أنه النفل وهو أنواع حار يابس في الأول...»[136]. لم يذكر المؤلف حرف الغين، والضاد، في معجمه، وربما لعدم توفر أسماء الأدوية في هذين الحرفين. وقد ذكر فيه أسماء بتعريفات مصطلحات الأطباء السابقين له[137]. جاء فيه أسما الأدوية التي وردت إلى الجزائر من أوروبا في العهد العثماني، أسماؤها في اللهجة المحلية، أو في اللغات الأخرى، ففي شرحه لعشب «افسنتين، يوناني هو شجرة مريم في الجزائر وفي فاس شيبة العجوز وهو يصدع ويصلحه الأفيسون حار يابس يسهل الخلط الصفراوي وضيق المعدة ويفعل في السوداء فعلا عجيبا وفيه قوة مسخنة ويدر البول...»[138]. وقال عن «الأفثيمون يوناني معناه دواء الجنون وهو الزعتر لا يعرف عندنا إلا بهذا الاسم...»[139] ، وقال عن «الخروب، ينبوت وهو خروب المعيز، والخروب النبطي شجرة له رائحة كريهة والقبائل يقولون له تريلت»[140].

تكمن أهمية الكتاب حسب مترجميه، في أن ابن حمادوش في مؤلفه قد اعتمد على المنهج العلمي التجريبي، والكتابات المعروفة في الطب والصيدلة، أخذ عن ابن سينا، وابن البيطار، وخاصة من داود الأنطاكي، ولم يستند إلى الخرافات، كما أنه يضيف الجديد في المواد الطبية لا علاقة لها بالأدوية الأوروبية، كما تحدث عن الأمراض والأدوية الأوروبية[141]، كما ذكر الأدوية بأنواعها والتي كانت معروفة ومتداولة في ذلك الوقت، باللغة العربية، والغربية، والمحلية[142] ، وكانت اغلب الأعشاب الواردة في

www.manaraa.com

الكتاب موجودة بالجزائر والبعض منها تعرف عليها بالمشرق[143]. ويعتبر هذا الكتاب مرجعا في علاج الأمراض الشائعة في الجزائر في ذلك الوقت، وما ميز هذا الكتاب عند وصفه للدواء وطريقة تحضيره يحدد مقادير مكونات دواء بالموازين الشائعة في ذلك الوقت، وكانت وحدة قياس الوزن هي حبة القمح مثال على ذلك، القيراط يساوي أربع حبات قمح، والدرهم بستة عشرة قيراطا، والأوقية باثني عشرة درهما، وقد وضع غابريال كولان جدولا يوضح فيه الموازين العربية ما يقابلها بالفرنسية[144].

تعديل المزاج بسبب قوانين العلاج: هذا المصنف الثاني لابن حمادوش، عالج في هذا الكتاب الأعضاء التناسلية، ووظائفها، والاضطرابات التي تصيبها، وأدويتها. ألفه في مدينة الرشيد بمصر سنة 1166هـ/1748. يتألف من حوالي عشرين ورقة[145]. رسالة في حجم صغير لا تتجاوز الكراستين. كانت مصادره في هذا الكتاب التجربة الشخصية، ومؤلفات العياشي، وابيقراط، وغاليان، وابن سينا، وحنين ابن اسحاق، وغيرهم، كما طعمها بأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم. وحسب ابن حمادوش فإن الاضطرابات التي تصيب الأعضاء التناسلية نوعان: نوع غير عادي أو خارج عن قدرة الإنسان، ونوع عادي مثل تعكر أو توعك القلب، والمخ، والكبد[146].

4- مساهمة حمدان بن عثمان خوجة في طرق الاحتراز من وباء الطاعون :

عانت الجزائر خلال العهد العثماني من وباء الطاعون الذي كان ينزل بها بصفة دورية يتكرر كل عشر سنوات إلى خمس وعشرين سنة تسبقه موجة من الجفاف تؤدي إلى المجاعة ثم غزو الجراد إلى جانب الكوارث الطبيعية. وقد كتب حمدان خوجة في الطاعون ولم يخص بهذه الدراسة الجزائر فقط، بل العالم العربي والإسلامي والولايات التابعة للدولة العثمانية فما هي الاحترازات التي صنفها حمدان خوجة من أجل التقليل من شدة وحدة هذا الوباء وفق ما كان معمولا به في أوروبا؟

حسب ما كتبت حوله من دراسات يبدو أن هذه الشخصية كانت تصنف ضمن المفكرين والمصلحين العرب الأوائل خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر. وقد عاصر أواخر الحكم العثماني بالجزائر، وشهد الاحتلال الفرنسي، وكان له مع رواد الاحتلال باع طويل في النضال والدفاع عن القضية الجزائرية مما كلفه ذلك النفي من الجزائر والتشريد، إلى أن استقر به المقام في اسطنبول. ولد حمدان بن عثمان خوجة في سنة 1773م بمدينة الجزائر، أصله كرغلي نشأ في وسط أسر علمية صاحبة وظائف في حكومة الداي، تصنف ضمن الأسر البرجوازية تمتلك أراضي شاسعة في سهل متيجة، ومحلات تجارية بمدينة الجزائر، تقلد أبوه وظيفة المكتابجي(الإشراف على سجلات الدولة)، وكان خاله أمينا للسكة، وقد

www.manaraa.com

صاحبه في عدة رحلات[147]. تلقى تكوينا دينيا وعلميا عن طريق والده والكتاب، ثم المدرسة، وتفوق في ذلك مما جعل والده يوليه اهتماما خاصا ولقنه أصول الإدارة والحكم، لكن انصب اهتمامه بأمور التجارة، ولقد تكون سياسيا أيضا بفعل أسفاره المتعددة لأوروبا والمشرق، وبرز ذلك خاصة بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر 1830م، حيث حمل هم القضية الجزائرية.

مساهمة حمدان خوجة، في الطب تمثلت في مؤلف يحمل عنوان " **إتحاف المنصفين والأدباء بمباحث الاحتراز من الوباء**" وهي عبارة عن رسالة في وجوب الوقاية والاحتماء، ويقصد هنا تطبيق نظام الكرنتينة، أو الحجر الصحي يستمر لمدة أربعين يوما. ألفها سنة 1252هـ/1836م حسب ما جاء في خاتمة الرسالة: « انتهى من جمعه كاتب الحروف، الحقير حمدان بن المرحوم عثمان خواجة، كان الله له(1252 هـ تم بخير»[148]. قدمها إلى السلطان محمود الثاني مصدرة بقصيدة رائية من البحر الطويل تحتوي على واحد وعشرين بيتا، كلها في مدح السلطان والاستنجاد به على نوائب الدهر، ومرارة الغربة، وفراق الأهل والبلد[149]. ترجمت إلى اللغة التركية وطبعت بالقسطنطينية[150].

الأسباب التي دعت حمدان خوجة لكتابة هذه الرسالة من وجهة نظره وحسب ما تم استنتاجه من مقدمة الرسالة، وما تضمنته:

- إهمال القواعد الصحية، وإنكارها والتزام التقشف والتعصب في عدم دفع المضرة، وملاحظة أغوارها في كثير مما ابتكره الغرب.

- تزمت بعض فقهاء الإسلام ونبذهم «لجميع ما جاء عن الإفرنج ولو كان فيه رقي أمتهم، أو صلاحها» حيث عاب عليهم رفض التجديد والإصلاح وعدم مواكبة تطور العلوم عند الأوروبيين، وهي دعوة صريحة للإصلاح وترك التزمت والأخذ بأسباب تطور الغرب وتخلف العالم الإسلامي وكأنه يرى أن أسباب التخلف هو تعصب العلماء الذين يرفضون أي تغيير أو إصلاح في الدولة العثمانية، فقد عاب على علماء عصره ذلك.

- سعة اطلاعه من خلال رحلاته، على النظم الغربية خاصة ما تعلق بالعناية بصحة المجتمع، والقواعد التي وضعوها من أجل الاحتراز من الوباء وهو ما يسمى بالكرنتينة: «فكنت رأيت ببلاد الفرنجية انتظام أمورهم، واعتناءهم بأمور السياسة في صيانة جمهورهم، وخصوصا حيث التزموا لدفع الوباء عنهم ما جربوه: من الإحتماء والإحتراز بالأستقراء في عدم إدخال الداخل إليهم، إلا بعد تحقيق البراءة والإستبراء وجعلوا لذلك حكاما في أماكن حصينة مع غاية الاحتياط»[151].

www.manaraa.com

- التمسك بعرى الوقاية والأخذ بمقابض الاحتماء من جيوش الوباء التي اجتاحت العالم الإسلامي وأفنت معظم شعوبهم وهذا يبرز سعة اطلاع حمدان خوجة لما كان يحدث بالعالم الإسلامي من الجانب الصحي والآثار التي ترتبت عن هذه الأوبئة من تراجع ديمغرافي.

وقد تحدث عن تفشي الوباء بالجزائر كمثال على ذلك سنة 1810م، الذي كانت له آثار سلبية على المجتمع والعمران والوضع الثقافي حيث قال: «ولقد حضرت في حياتي وهي تنيف عن الستين وقوع الوباء بالجزائر متفرقة على سنين، وكان مجموع مدة تلك المحنة عشرين، فشوهت خلقة الجزائر بعد عذراء مستحسنة فأقفرت معالم البلاد، وتشوشت أحوال العباد وأضمحل العلم، وذوو الاستعداد، وانقرض من العساكر من كان عدة في العمران والفلوات»[152].

- تطور العلوم بأوروبا، حيث وصف مظاهر النهضة بها، منها تطور الصناعة والجيش، وغيرها. وأكد خوجة على الإعتراف بمهارة الأوروبيين في الطب واختصاصهم في الصنائع[153].

- إهمال الحكام للشؤون الصحية، وتحميلهم المسؤولية فهم أولو الأمر في دفع الضرر عن الرعية، وشبه السلطان بالأب المطاع مع أطفاله، وأهل بيته، وعدم موافقة من دعاهم بالجهال على تعصبهم وجهلهم، كما دعا إلى وجوب تغيير القوانين من أجل حفظ صحة الناس[154].

ويبدو أن السبب المباشر في كتابة هذه الرسالة، ذلك النقاش الكبير المثار وكان فيه خلاف بين العلماء، حول مسألة الإحتراز من الوباء " الإحتراز حرام أو كفر"، حيث نستشف ذلك بين أسطر الرسالة، ويذكر خوجة أنه بلغه أن أحد العلماء –من ينتسب إلى العلم على حد تعبيره- قد ألف رسالة وصرح فيها بكفر من احتراز على قاعدة الكرنتينة من الوباء. ويذكر أنه لم يقف على الرسالة ولا اسم مؤلفها، ولا يعلم ما الذي استند عليه في ذلك[155]. فالراجح أن فكرة الاحتراز وتطبيق نظام الكرنتينة لم ترق العلماء في تلك الفترة، ويكاد يكون هناك إجماع على الرفض، وهذا كان من أهم دوافع كتابة هذه الرسالة حيث قال: «ولعل من له نوع من هذا الغلو ينكر جوار الإحتراز عن الوباء ويكابر ويصادر وكأني بجهلة العوام يساعدونه، بناء على قاعدة يجعلونها صغرى لقياسهم الفاسد، ويضمون إليها كلمة كبرى، وهي: وكلّ ما إخترعه الكافر، ففعله كفر أو حرام...»[156]. كما أثبت أن هؤلاء لم يستندوا في رأيهم على نص أو اجماع، واتهمهم بتحريم الاختراز من الوباء وتحليل الربا وهي الزيادة في المعاملة بالنقود[157].

قدم حمدان خوجة في هذه الرسالة أسباب الوباء وطرق انتشاره، وآثاره على الإنسان والعمران، إلى جانب تبيان كيفية الوقاية منه وذلك اعتمادا على ما مشاهدته الشخصية، ووقوفه على كيفية تطبيق

www.manaraa.com

نظام الكرنتينة بالمدن الأوروبية من خلال أسفاره، كما استدل على ذلك بأمثلة من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية و أمثلة من التاريخ الإسلامي بالحجج والأدلة القاطعة، واقترح مجموعة من الحلول من أجل تفادي هذه الكارثة الوبائية.

منهج حمدان خوجة في كتابة هذه الرسالة: يبدو أن تأليف هذا العمل جاء بالدرجة الأولى من تجربة الكاتب الشخصية حيث شاهد وعاش الوباء في الجزائر وفي مناطق أخرى من أوروبا، لأنه كان كثير التجوال والترحال بحكم ممارسته للتجارة فكان يزور المدن الساحلية لجنوب أوروبا، اسبانيا، ومرسيليا، وليفورن-حسب ما ورد في الرسالة كما انه لاحظ ما يسببه الوباء من كارثة ديمغرافية في البلاد التي يحل بها.

يبدو أنه قبل شروعه في كتابة الرسالة أطع على ما كتب حول الموضوع من طرف الأطباء العرب والإغريق، وأيضا ناقش ما ورد من أحاديث نبوية، وأقوال الصحابة والتابعين، تمثلت مصادره بالدرجة الأولى في القرآن الكريم حيث استشهد، بالآيات الكريمة التي تحمل معنى الاحتماء والاحتراز، ودفع الأذى عن النفس، وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وآثار الصحابة والخلفاء الراشدين، وأقوال العلماء، في شأن إباحة الفرار من الضرر، لا سيما من الوباء الفتاك، كما أدرج العديد من أقوال الرواة منها ما رواه الإمام أحمد، وعبد بن حميد، والإمام مسلم، والنسائي، والترمذي وهو ما روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «إن هذا الطاعون رجز وبقية عذاب عذب به قوم قبلكم فإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا وإذا سمعتم به بأرض قوم فلا تدخلوا عليه»، وقوله أيضا: «لا يُورد الْمُمْرِضُ على الْمُصح»، كما استشهد بأقوال العلماء منهم الشيخ مرعي جمال الدين المقدسي في كتابه "تحقيق الظنون بأخبار الطاعون". وقد ناقش كل هذا بأدلة عقلية وبراهين حاول من خلالها إقناع القارئ والعلماء بضرورة إقامة الحجر الصحي[158]. كما أراد أن يثبت أن نظام الكرنتينة لم يكن غريبا عن الأمة الإسلامية، بل عمل به وأسدل بذلك بأمثلة من التاريخ الإسلامي.

كما استشهد بالعديد من المصادر منها رسالة الشيخ محمد بن أحمد الشريف الجزائري(ت. 1149ه) "المن والسلوى في حديث لا عدوى"، وكتاب الإحياء للأمام الغزالي باب العلم. وقد أشار أيضا أنه اطلع على رسالة الشيخ إدريس ابن حسام الدين البدليسي الحنفي (ت. 930ه)، ألفها في حدود 920ه سماها "الآباء عن مواقع الوباء"، وهي في جواز الاحتماء والاحتراز عن الوباء ووجوبه كسائر التهلكات، وهي ردا على ما أنكر عليه عدم قدومه على بلدة سمع بها الوباء وقد أورد أقوال النبي صلى الله عليه وسلم، وأقوال الصحابة وأفعالهم، وأقوال العلماء، وقد نقد هذه الرسالة في بعض ما جاء فيها[159].كما ذكر

www.manaraa.com

حمدان خوجة في رسالته أنه اطلع على بعض الكتب في الطب لكن لم يحدد أسماءها وذلك من أجل تعريف الوباء وأسابه.

مضمون رسالة حمدان بن عثمان خوجة: تحتوي الرسالة على مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة، وملحق في شرح المفردات. تتضمن المقدمة تسع مقالات: المقالة الأولى في إقامة الأدلة، النقلية والعقلية، على أن الله هو الخالق لعباده وأفعالهم. المقالة الثانية: أن حكمة الله إخفاؤه أفعاله عن عبادة، وجعله الأسباب والعلل، مظهرا لكل ما ظهر في الوجود. المقالة الثالثة: أن دفع الأذى باليد، أو السلاح واجب، قد حث عليه ولا يجوز أن يتهاون فيه. المقالة الرابعة: إن صدق التوكل المطلق، ونبذ الأسباب، وكون الإنسان بين يدي الله، كالميت بين يدي مغسله، مقام لا ينكر، لكنه خاص بالرجل الكُمل، والخواص من عباده. المقالة الخامسة: أن سببية الأسباب، وعلية العلل، وشرطية الشروط، لا يتوقف ثبوتها ومعرفتها، على الشرع، بل قد ثبت بعضها بالشرع، وبعضها بالإلهام وبعضها بالتجربة. المقامة السادسة: كون الشيء علة لشيء آخر، أو سببا في وجوده أو شرطا فيه، لا يقتضي عدم تخلف ذلك الشيء، عند وقوع شرط وسببه، وعلته لاحتمال وقوع مانع، أو انعدام شرط آخر، إذ قد يكون للشيء الواحد شروط متعددة، غير معلومة. المقالة السابعة: أن ثبوت تقدم الأفرنج، وأن تمهرهم في العلوم الرياضة، والطبيعية، والصناعية ناتج عن عدم تقديمهم بما يتعلق بأمور دينهم، وثواب أخراهم. وأن تأخر المسلمين ناتج عن تقيدهم بأمور دينهم، وإهمالهم لشؤون دنياهم. المقالة الثامنة: فيما يجب على أولى الأمر نحو رعيتهم، وما يجب على الرعية تجاه أمرائهم. المقالة التاسعة: في بيان حقيقة "الكرنتينة" وضرورة تطبيقها في العالم الإسلامي.

الباب الأول: في معنى الإحتراز وأخذ الحيطة ووجوب الأخذ بالأسباب، ووجوب أخذ الحذر وعدم الإلقاء بالنفس إلى التهلكة مستندا في ذلك على الكثير من الآيات القرآنية، وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وآثار الصحابة، وأحداث الخلفاء، وأقوال علماء الإسلام، في شأن إباحة الفرار من الضرر، لا سيما من الوباء الفتاك، كما اشتمل على الأدلة العقلية، وبراهين منطقية تعزز الآثار النقلية.

وفي الباب الثاني خصصه لتعريف الوباء وأسبابه، وطرق الاحتراز منه.

أما في الباب الثالث، تضمن كيفية تطبيق الكرنتينة حسب ما هو معمول به في أوروبا.

وأنهى الرسالة بخاتمة قدم فيها الحلول التي يراها مناسبة لإنجاح الكرنتينة، شملها في خمس مقاصد، الأولى أن تكون هناك إدارة سياسية وعناية من جانب السلطان في تطبيق هذا النظام، واقترح وضع طبيب في كل بلد من بلاد الإسلام، حاذق ناصح يقتدر على معرفة الفرق بين المرض الوبائي وبين

www.manaraa.com

غيره، وكأنه يؤسس لوضع قواعد لمنظومة صحية متكاملة من جانب الدولة. المقصد الثاني، بناء مراكز خاصة بالحجر الصحي بكل المدن الساحلية مجهزة. المقصد الثالث، وجوب بناء مركزين للحجر الصحي بجانبي القسطنطينية على مدخل البحرين. المقصد الرابع، الاستعانة بالدول الغربية في أمور الكرنتينة، والطب. المقصد الخامس، خصصه للرد على العلماء الذين أنكروا الاستعانة بالدول الغربية[160].

وفي آخر الرسالة ختمها بملحق تضمن تفسير بعض العبارات، وشرح المفردات اللغوية التي وردت في الرسالة.

مساهمة حمدان بن عثمان خوجة في رسالة في الطب حول الاحتراز من الوباء، لم تكن مجرد رسالة تبحث في أصل الداء وأسبابه وطرق الوقاية منه بل أيضا رسالة تحمل فكر إصلاحيا تجديديا نهضويا، يدعو من خلالها إلى الأخذ بأسباب تقدم الغرب ومحاربة العصبية وعاب على علماء عصره العزلة ورفض الإصلاح بما يخدم الأمة الإسلامية.

الخاتمة:

في آخر هذه الورقة البحثية يمكن أن نستنتج:

إن المعتقدات الشعبية حول الصحة وممارسة الطب التقليدي(الشعبي) بصفة واسعة جدا داخل المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني-مازالت هذه الممارسات طاغية إلى وقتنا الحاضر- الذي كان حاضرا بقوة، وتعدد طرق العلاج بتنوع الممارسين لمهنة الطب، والاعتقاد في بركة الشيخ المرابط، والولي الصالح في المساعدة على الشفاء سواء عن طريق زيارة الأضرحة أو لمس الرأس أو وضع التمائم والحروز، والعلاج عن طريق الرقية(قراءة صور من القرآن الكريم)، أو الحجامة والدهن ببعض الزيوت، كل هذا ساهم في عدم اهتمام علماء الجزائر بعلوم الطب والصيدلة والتجديد فيها والأخذ بما شهده الطب من تطور في أوروبا وتطوير طرق العلاج والوقاية من الأمراض. ولهذا نجد أن أغلب المدونات هي ملخصات وشروحات تعتمد على ما ألفه علماء الطب والصيدلة في الدولة الإسلامية، ابن سينا، وابن البيطار، والأنطاكي، وحتى كتابات الإغريق أبيقراط، وجالينيوس. وعلى الرغم من ذلك لم يخل الأمر من بعض المصنفات الطبية، التي تطرقت إلى مجموعة من الأمراض وبينت طرق العلاج.

كانت أساليب الوقاية من الأمراض وعلاجها مرهونة بالبحث في الطبيعة عن مواد نباتية وحيوانية للتغلب على مشاكل الصحة، ثم تطور إلى ممارسات غير محسوسة تمثلت في السحر والتمائم والتعاويذ

www.manaraa.com

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
wafia@live.f-

وغيرها من أشكال العلاج. وكانت أرض الجزائر منتجا لجميع أنواع الأعشاب الطبية، وقد ألف عبد القادر حليمي معجما في الأعشاب الطبية، سماها النباتات الطبية في الجزائر مستمدا مادته من جميع ما كتب من مخطوطات ومراجع عامة. كما أن تعدد طرق العلاج عن طريق الأدوية الشعبية من تراثنا الشعبي التقليدي، التي كانت ناجحة في معالجة بعض الأمراض تحتاج إلى دراسة علمية.

عدم الاهتمام من جانب السلطة الحاكمة بصفة عامة بالمنظومة الصحية، من إنشاء المستشفيات، ومدارس الطب، والاهتمام بالأطباء الجزائريين، وتشجيع العلماء على دراسة الطب وتدريسه، ساهم في تراجع الطب الرسمي على حساب الطب الشعبي.

تعتبر مساهمة كل من الطبيب عبد الرزاق بن حمادوش في النصف الأول من القرن الثامن عشر، والمصلح حمدان بن عثمان خوجة في النصف الأول من القرن التاسع عشر، خارج عصرهم بحيث اهتموا بعلوم كانت محظورة ، ويتجنبها علماء عصرهم. فلا نجد في الجزائر خلال العهد العثماني من برع في الطب والصيدلة مثل ما أنتجه ابن حمادوش وأشار في رحلته أنه يتأسف عندما لا يجد من يتقن الطب في بلد ما. ويمكن القول أن حمدان بن عثمان خوجة قد أرسى قواعد الحجر الصحي، التي لم تكن محترمة بأغلب بلدان العالم الإسلامي.

وفي الأخير لا يمكن الإقرار بأي حال من الأحوال ما ذهبت إليه آراء الأجانب الذين كتبوا حول الجزائر خلال العهد العثماني بعدم وجود منظومة صحية على الإطلاق، فهذا الحكم قاسٍ إذا أخذنا بعين الاعتبار طبيعة العصر، وذهنية المجتمع، وطبيعة الحكام، فالواقع الصحي كان عاما بالنسبة للجزائر أو للعالم الإسلامي، بما يقابلها من تطور في مجال الطب والعلاج الذي ظهر في أوروبا منذ منتصف القرن الثامن عشر. ورغم ذلك لم يخل الأمر من مساهمة فاعلة من جانب علماء الجزائر، وتركوا لنا مصنفات علمية طبية، شهد لها الأوروبيون أنفسهم، والمستشرقون هم من قاموا بترجمتها ونشرها.

الاحالات و الهوامش:

1. **وافية نفطي، الوقف بمدينة الجزائر من أواخر القرن 18م إلى منتصف القرن 19م، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث والمعاصر، غير منشورة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية قسم التاريخ والآثار، جامعة باتنة 1 الحاج لخضر، الجزائر، السنة الجامعية** 2016- 2017.
2. Laugier De Tassy, Histoire de la royaume d'Alger, Amsterdam, p 125.
3. **عبد الرحمان بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، مؤسسة باباي للنشر والتوزيع والطباعة، تونس، ودار الجيل بيروت، دون سنة طبع، ص** 545.

www.manaraa.com

4. ابن البيطار(...- 646ه/...- 1248م)، هو عبد الله بن أحمد المالقي، أبو محمد ضياء الدين المعروف بابن البيطار، إمام النباتين وعلماء الأعشاب بعلم الطب. رحل إلى اليونان باحثا عن الأعشاب، والعارفين بها حتى كان الحجة في معرفة النبات وتحقيقه وصفاته وأسمائه، صاحب كتاب الأدوية المفردة في مجلدين. ينظر: الزركلي، خير الدين، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، حرف الشين، الطبعة الخامسة، دار العلم للملايين بيروت لبنان، عشر أيار/ مايو 2002، الجزء الرابع، حرف العين، ص 67.
5. الأنطاكي(...- 1008ه/...- 1600م): داود بن عمر الانطاكي عالم في الطب والأدب، انتهت إليه رئاسة الأطباء في زمانه، من تصانيفه تذكرة أولى الألباب في الطب والحكمة في ثلاث مجلدات، ويعرف بتذكرة داود. له أيضا النزهة المبهجة في تشحيذ الأذهان وتعديل الأمزجة، ونزهة الأذهان في إصلاح الأبدان"، و"زينة الطروس في أحكام العقول والنفوس"، و"ألفية في الطب"، و"كفاية المحتاج في علم العلاج"، و"شرح عينة ابن سينا". ينظر: الزركلي، الأعلام، الجزء الثاني، ح الألف، والتاء، والحيم، والجاء، والحا، والدال، ص 333- 334.
6. عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، ص 546.
7. لمعرفة المزيد حول الحياة العلمية بتلمسان في العهد الزياني ينظر: عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياتي، الجزء الثاني، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة رغاية، الجزائر، 2011، ص ص 435- 493.
8. عبد العزيز فيلالي، المرجع نفسه، ص 470.
9. عبد الجليل قريان، التعليم بتلمسان في العهد الزياني، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص 253- 254.
10. حسن بن علي بن حسن بن علي بن ميمون(694- 750ه/1294- 1349م)، فقيه مالكي محدث، ألف في بعض العلوم، من أهل قسنطينة تعلم بها، وببجاية، رحل إلى المشرق مرتين. ينظر: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، الجزء الثاني، مركز الإمام للدراسات ونشر التراث، الجزائر، 2011، ص 54.
11. عادل نويهض، المرجع نفسه، ص 54.
12. فلة موساوي- قشاعي، الواقع الصحي والسكاني في الجزائر أثناء العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي 1518- 1871، منشورات بن سنان، الجزائر، ص 65.
13. المرجع نفسه، ص 65.
14. الوزان الحسن بن محمد الفاسي، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الجزء الثاني، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي،1983 ، ص 21.
15. المصدر نفسه، ص 19.
16. De Diego Haödo, Topographie et histoire générale d'Alger, la vie à Alger au seizième siècle, traduit de l'espagnol et notes de A. Berbrugger et de Dr. Monnereau, présentation de Abderrahmane Rebahi, Grand-Alger Livres, 3eme Edition, 2007, p 176.
17. Ibid, p 193.
18. Ibidem.

يبدو أن هايدو كان قاسيا في أحكامه لأنه ذكر هذا ضمن حديثه عن العادات أو الصفات السيئة عند الجزائريين وهي الشح والامتناع عن تقديم الصدقات،وهذا يتناقض مع حجم الأوقاف الخيرية والصدقات التي كان يوقفها الجزائريين على الفقراء والمساكين، لكن تبق مسألة ندرة مستشفيات الجزائرية قائمة، ونحن نتفق معه في ذلك.

19. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الثاني،دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1998، ص 447.
20. ف. شونبيرغ، الطب الشعبي الجزائري في بداية الاحتلال، ترجمة أبو العيد دودو، الكتاب الثالث، المجلد الأول، شركة دار الأمة للطباعة والنشر، طبعة خاصة 2009، ص 75.
21. المصدر نفسه، ص ص 79- 80.
22. أبو القاسم سعد الله، الثقافي، الجزء الخامس، المرجع السابق، ص ص 30- 31.

www.manaraa.com

23. سيمون بافيفر، مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر، تقديم وتعريب أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر1974، ص 86 و103- 104.

24. Boyer P., La vie Quotidienne à la veille de l'intervention française, Hachette, Paris, 1963, p p 205-208.

25. Fernand Arnandies, Esquisses anecdotique et historique du vieil Alger, Edition A. Barthélemy, 1990, p 188.

26. Henri Klein, Feuillet d'El-Djezair, T. 1, Comite du Vieil Alger(1910), Edition du Tell, Blida, Algérie, 2003, p 9.

27. Berbrugger A., «Charte des hôpitaux chrétiens d'Alger en 1694», R A, N° 8, 1864, p 133-144.

28. عبد الله بن محمد شويهد متولي السوق، قانون أسواق مدينة الجزائر(1107- 1117ه/1695- 1705)، (مخطوطات المكتبة الوطنية الجزائرية رقم 1378، عدد الورقات 1- 116)، تحقيق وتقديم وتعليق ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2006، ص 106.

29. DR Shaw, Voyage dans la régence d'Alger, traduit de l'anglais par J. Mac Carthy, Paris, 1830, p p 80-82.

30. وجد ضمن وثائق المحاكم الشرعية، بالأرشيف الوطني الجزائري البعض منها بعلبة رقم 12 من 1- 4، وصفات طبية من الأعشاب، وأدعية عند النوم والسفر، وبعض التعويذات.

31. أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الطبعة الثالثة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1990، الجزء الثالث، ص 187.

32. مصطفى خياطي، الطب والأطباء في الجزائر العثمانية، منشورات ANEP، الجزائر، 2013، ص 107- 111.

33. إينالجيك خليل، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الإنحدار، ترجمة محمد.م. الأرناؤوط، الطبعة الأولى، دار المدار الإسلامي، بيروت- لبنان، 2002، ص 273- 274.

34. سعد الله، الثقافي، الجزء الثاني، المرجع السابق، ص 420.

35. محمد بن محمد بن أحمد، الملقب بابن مريم، أبو عبد الله الشريف المليتي نسبا المديوني أصلا، كان حيا سنة 1025ه/1611م، مؤرخ وكتب في عدة علوم، من فقهاء المالكية، له البستان في ذكر أولياء وعلماء تلمسان، انتهى منه سنة 1014ه، و"غنية المريد لشرح مسائل أبي الوليد"، و"تحفة الأبرار وشعار الأخبار في الوظائف والأذكار المستحبة في الليل والنهار". ينظر: عادل نويهض، المرجع السابق، ص ص 100- 101.

36. مصطفى خياطي، المرجع السابق، ص 119.

37. نفسه.

38. نفسه، ص 421.

39. نفسه.

40. عبد الله بن أحمد بن عبد العزيز(عزوز) المراكشي دارا ومنشأ، السوسي أصلا، العباسي نسبا، التلمساني، أبو محمد، يعرف بسيدي بلّة من أهل مراكش، له كتب منها لباب الحكمة في علم الحروف وعلم الأسماء الإلهية، ذهاب الكسوف ونفي الظلمة في علم الطب والطبائع والحكمة فرغ من تأليفه في رمضان 1194ه/1779م. توجد نسخة من الكتاب في خزانة الرباط. ينظر: الزركلي ، الجزء الرابع، حرف عين، ص 69.

41. أبو القاسم سعد الله، الثقافي، الجزء الثاني، المرجع السابق، ص 411

42. دهبية بوشيبة، «العلم والعلماء في الجزائر خلال العهد العثماني»، الحوار المتوسطي، العدد 3- 4، مارس 2011- 2012، عدد الصفحات(118- 143)، ص 131.
https :www.asjp.cerit.dz/en/article/17110. Volume 3, Numéro 1

43. نقلا عن دهبية بوشيبة، « »ص 133. ذكرت انه مخطوط خاص وقد اطلعت عليه كاملا.

44. أبو القاسم سعد الله، الثقافي، الجزء الثاني، المرجع السابق، ص 411

45. دهبية بوشيبة، « »ص 133. ذكرت انه مخطوط خاص وقد اطلعت عليه كاملا.

www.manaraa.com

46. أبو القاسم سعد الله، الثقافي، الجزء الثاني، المرجع السابق، ص 411
47. سعد الله، ثقافي، الجزء الثاني، المرجع السابق، ص 424.
48. Shaw, Op.cit, p 87.
49. حمدان بن عثمان خوجة، إتحاف المنصفين والأدباء في الإحتراس من الوباء، تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1968، ص 120.
50. فلة موساوي، المرجع السابق، ص 80.
51. سعد الله، ثقافي، الجزء الثاني، المرجع السابق، ص 432.
52. نفسه.
53. العربي بن عبد القادر بن علي المشرفي أبو حامد(...- 1313ه/1895م)، مؤرخ وأديب، من أهل قرية الكراط من ضواحي معسكر، تعلم بوهران وهاجر إلى المغرب بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر. ينظر: عادل نويهض، المرجع السابق، ص ص 125- 126.
54. Lucien Leclerc, Histoire de la médecine arabe, Tome second, Ernest Leroux Editeur, Paris, 1876, p 310.
55. مصطفى خياطي، الطب والأطباء، المرجع السابق، ص 83.
56. إليزابيث لونغينيس، سيلفيا شبغولو، نبيل م. قرنفل، عمر دوهجي، «الصحة العامة في الوطن العربي مهنة الطب وبناء الدولة في الوطن العربي: نظرة تاريخية»، المستقبل العربي، ص 15.
Moustaqbal Arabi 419 Final.indd www.univ-tébessa.dzLfichie/master/master_1825.pdf.
57. Albert Devoulx, Alger, Etude archéologique et topographique au époques romaine, arabe et turque, manuscrit que l'auteur avait élaboré pour postuler au prix de l'Académie algérienne institue le 31 mars 1870 dans le cadre de l'encouragement des recherché historique relative à l'érudition archéologique, p 200.
58. أبو القاسم سعد الله، الثقافي، ج 5، ص 129.
59. شوبيرغ، المرجع السابق، ص ص 36- 37.
60. نفسه، ص ص 40- 41.
61. نفسه، ص ص 41، 61.
62. نفسه، ص 42.
63. نفسه، ص 54.
64. أبو القاسم سعد الله، الثقافي، الجزء الثاني، المرجع السابق، ص 418.
65. نفسه، ص 73.
66. إينالجيك خليل، المرجع السابق، ص 272.
67. Haëdo, Op.cit, p 175.
68. عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش المسماة لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، تقديم وتحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983، ص 71.
69. نفسه، ص 81.
70. حمدان بن عثمان خوجة، إتحاف المنصفين والأدباء في الإحتراس من الوباء، المصدر السابق، ص ص 72، 78.
71. أبو القاسم سعد الله، الثقافي، الجزء الثاني، ص 417.
72. سيمون بافيفر، المصدر السابق، ص ص 25- 26.
73. أبو القاسم سعد الله، الثقافي، الجزء الثاني، ص 417.

www.manaraa.com

74. عرف ابن خلدون في المقدمة الطب الشعبي وسماه طب البادية حيث قال:«وللبادية من أهل العمران طب يبنونه في غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص متوارث عن مشايخ الحي وعجائزه، وربما يصح منه البعض إلا أنه ليس على قانون طبيعي، وعلى موافقة المزاج، وكان عند العرب من هذا الطب الكثير». ينظر: ابن خلدون، المقدمة، ص 546. الطب الشعبي نوع من الممارسات العلاجية يقوم به أشخاص على اختلاف أعمارهم وثقافتهم يستخدمون فيه المواد الطبيعية كالأعشاب وبعض أجزاء الحيوان وبعض الدهانات.

75. Shaw, Op.cit, p 87.

76. نقلا عن عبد القادر حليمي، مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830، الطبعة الأولى، دار الفكر الإسلامي، الجزائر، 1982، ص 274.

77. مصطفى خياطي، المرجع السابق، ص 79.

78. تؤكد المصادر أن المكتبات الجزائرية، ودكاكين الكتب كانت تتوفر على مصنفات في الطب والأعشاب، إلى جانب مؤلفات ابن سينا، وابن البيطار، الأنطاكي، وربما تفتقد إلى المؤلفات الغربية في الطب وهذا ما نلمسه في مذكرات سيمون بفايفر عندما طلب من سيده الخزناجي أن يوفر له كتبا طبية خاصة بالجراحة للإطلاع وتنمية قدراته، فأجابه:«أنه لا يستطيع أن يحضر لي سيئا منها، أما إذا كنت في حاجة إلى كتب عربية أو فارسية أو تركية، فإنه يضع تحت تصرفي الكثير منها»، لأنه لم يكن يتقن هذه اللغات. ينظر: سيمون بفايفر، المصدر السابق، ص 48.

79. شالر وليام، مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر 1816- 1824، تعريب وتعليق وتقديم إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر1982، ص 81.

80. شونبيرغ، الطب الشعبي الجزائري المصدر السابق، ص 50.

81. أبو القاسم سعد الله، الثقافي، الجزء الثاني، ص 419.

82. شونبيرغ، المصدر السابق، ص 39.

83. ابن حمادوش، الرحلة، المصدر السابق، ص 121.

84. إلتر عزيز سامح، المرجع السابق، ص 145.

85. Shaw, Op.cit, p 82.

86. شونبيرغ، الطب الشعبي الجزائري المصدر السابق، ص 42.

87. Bourkaib Mustafa(né à Alger le juillet 1884), Contribution à l'étude de l'assistance médicale aux indigène d'Algérie Hôpitaux et infirmeries, thèse de doctorat en Médecine, Adolphe Jourdan, Alger, 1915., p 24 .

88. Shaw, Op.cit, p 86.

89. ابن حمادوش، الرحلة، المصدر السابق، ص 118.

90. شونبيرغ، الطب الشعبي الجزائري المصدر السابق، ص ص 45- 49.

91. المصدر نفسه، ص 52.

92. نفسه، ص 53.

93. بودريعة ياسين، أوقاف الأضرحة والزوايا بمدينة الجزائر وضواحيها خلال العهد العثماني من خلال المحاكم الشرعية وسجلات بيت المال وبيت البايلك، مذكرة لنيل شهادة الماجستير تخصص تاريخ حديث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ جامعة بن يوسف بن خدة، الجزائر، 2006- 2007، ص 85.

94. فلة موساوي، المرجع السابق، ص ص 269- 270.

95. المرجع نفسه، ص 173.

96. إليزبيث لونغينيس وآخرون، المرجع السابق، ص 13.

97. ابن حمادوش، الرحلة، المصدر السابق، ص 29.

www.manaraa.com

98. أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، الجزء الأول، ص 223. انشغاله الشديد بالعلم، وخسارته في التجارة، وفقره أثر على علاقته بأسرته، فلم يكن سعيدا مع زوجته الثانية، ولا مع أمه، وأخته حيث خرجوا عنه. للمزيد ينظر: ابن حمادوش، الرحلة، ص 115.
99. ابن حمادوش، الرحلة، المصدر السابق، ص 266.
100. المصدر نفسه، ص 265.
101. نفسه، ص ص 254- 266.
102. نفسه، ص 298.
103. نفسه، ص 35.
104. ابن حمادوش، الرحلة، المصدر السابق، ص 166.
105. المصدر نفسه، ص ص 202- 203.
106. المصدر نفسه، ص 115.
107. نفسه، ص 160.
108. نفسه، ص ص 160- 161.
109. مفردها الترياق Antidotes, thiriaque دواء يتركب من عدد كبير من العقاقير المخلوطة زعم القدماء أنه صالح ضد السموم وأمراض عديدة. ينظر: حليمي عبد القادر، النباتات الطبية في الجزائر، الطبعة الثانية، Berti Edition، دالي ابراهيم، الجزائر، 2014، ص 267.
110. ابن حمادوش، الرحلة، المصدر السابق، ص 162.
111. نفسه، ص 161.
112. نفسه، ص ص 138- 139.
113. ابن حمادوش، الرحلة، المصدر السابق، ص ص 139- 142.
114. عبد الوهاب بن أحمد آدرّاق(...- 1159ه/...- 1746م) أبو اليمن: طبيب المولى اسماعيل وأسرته في المغرب من أهل فاس، ووفاته بها، قال صاحب السلوى أخذ الطب عن أهله إذ هو حرفتهم. له كتب منها تعليق على النزهة المبهجة لداود الأنطاكي، منظومة في مدح صلحاء مكناسة الزيتون، وقصيدة في منافع النعناع، ذيل بها أرجوزة ابن سينا في الطب. ينظر: الزركلي، المرجع السابق، الجزء الرابع، حرف العين ص 181.
115. ابن حمادوش، المصدر السابق، ص ص 81- 82.
116. المصدر نفسه، ص 121.
117. هو حُنَين ابن اسحاق(194- 260ه/810- 873م)، طبيب، ومؤرخ، ومترجم، كان أبوه صيدلانيا من أهل الحيرة في العراق، ارتحل إلى بغداد فأخذ الطب عن يوحنا بن ماسويه وغيره. له مؤلفات في الطب منها الفصول الأبقراطية في الطب، والقول في حفظ الأسنان واستصلاحها، كما ترجم كتب لجالينوس. ينظر: الزركلي، الجزء الثاني، حرف الحاء، ص ص 276- 277.
118. ابن حمادوش، المصدر السابق، ص 160.
119. يرى خياطي أنها حمى الملاريا، وقد خصها ابن حمادوش بقصيدة التي أهداها للشيخ أدراق، مما يدل على معرفة المرض وعلاجه. ولحاء الكينا، أو الكينين مستخدمة منذ القرن السابع عشر كانت متوفرة في المغرب العربي وتباع عند الصيدلية. وبسبب المذاق المر للكينا لجأ ابن حمادوش إلى تناولها مع القهوة المرة، في أوروبا كانت توضع في النبيذ والشراب الإنجليزي. ينظر: مصطفى خياطي، الأوبئة والمجاعات في الجزائر، ترجمة حضرية يوسفي، منشورات ANEP، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، وحدة الطباعة الرويبة 2013، الجزائر، ص 93- 94.
120. ابن حمادوش، المصدر السابق، ص 84.

www.manaraa.com

121. المصدر نفسه، ص 121.

122. ابن حمادوش، المصدر السابق، ص 120.

123. المصدر نفسه، ص 164.

124. المصدر نفسه، ص 164.

125. تم الاعتماد على النسخة المطبوعة سنة 1321ه/1903م، عبد الرزاق ابن حمدوش الجزائري، كشف الرموز في بيان الأعشاب، طبعت على ذمة أحمد بن مراد التركي وأخيه، بالجزائر. وأشار غابريال كولان (Gabriel colin)، الذي ناقش رسالة الدكتوراة سنة 1905م حول الطبيب العربي عبد الرزاق بن حمادوش، أن الناشر قد أضاف فهرس للكتاب، وهي لوحة أبجدية للأعشاب كما وردت في النص مع ترقيم الصفحة. أما النسخة الأصلية كانت موجودة بمكتبة المخطوطات بمدينة الجزائر حصل عليها لوسيان لوكليرك سنة 1857م. ينظر:
Gabriel colin, Abderrezzaq El-jezairi, un Médecin Arabe du XII siècle de l'Hégire, Thèse présentée et publiquement soutenue à la Faculté de Médecine de Montpellier le 9 mars 1905, pour obtenir le titre de Docteur en Médecine, p 35-37.

126. قام الدكتور لوسيان لوكلير وغبريال كولان بترجمة هذا الكتاب ونشره باللغة الفرنسية.

127. أبو القاسم سعد الله، الثقافي، الجزء الثاني، ص 446.

128. Lucien Leclerc, , Op.cit, p 308.

129. أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص 428.

130. ابن حمادوش، كشف الرموز، المصدر السابق، ص 5.

131. المصدر نفسه، ص 4.

132. لمعرفة المزيد حول أفعال الأدوية والمصطلحات المعروفة بها في الوقت الحاضر ينظر: حليمي عبد القادر، النباتات الطبية في الجزائر، المرجع السابق، ص 269- 271.

133. ابن حمادوش، كشف الرموز، المصدر السابق، ص 6- 12.

134. المصدر نفسه، ص 13.

135. المصدر نفسه، ص 13.

136. نفسه، ص 14.

137. أبو القاسم سعد الله، الثقافي، الجزء الثاني، ص 432.

138. ابن حمادوش، كشف الرموز، المصدر السابق، ص ص 14- 15.

139. المصدر نفسه، ص 15.

140. المصدر نفسه، ص 168

141. Lucien Leclerc, Op.cit, p 309.
142. Ibid, p 308.
143. Gabriel colin, Abderrezzaq El-jezairi, Op.cit, p 39.
144. Ibid, p 43.
145. Lucien Leclerc, Op.cit, p p 309-310.

146. أبو القاسم سعد الله، الثقافي، الجزء الثاني، ص ص 435- 436.

147. لمعرفة المزيد حول شخصية حمدان بن عثمان خوجة ومساهمته في تفعيل قضية الاحتلال الفرنسي للجزائر في 5 جويلية 1830 سياسيا، وفكره الإصلاحي والتجديدي ينظر كل من: محمد الطيب عقاب، حمدان خوجة رائد التجديد الإسلامي، منشورات وزارة الثقافة والسياحة، مديرية الدراسات التاريخية وإحياء التراث، الجزائر، 1973، و حميدة عميراوي، دور حمدان بن عثمان خوجة في تطوير القضية الجزائرية 1827- 1840م، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، الجزائر، 1987 و محمد بن عبد الكريم، حمدان بن عثمان خوجة الجزائري ومذكراته، دار الثقافة للطباعة والنشر، بيروت لبنان، د.ت.

www.manaraa.com

148. حمدان بن عثمان خوجة، إتحاف ، ص 164.
149. نفسه، ص 32.
150. نفسه، ص 33.
151. نفسه، ص 45.
152. نفسه، ص 46.
153. نفسه، ص 149.
154. حمدان خوجة، الاتحاف، ص 78.
155. نفسه، ص 149.
156. نفسه، ص 155.
157. نفسه، ص 156.
158. لقد خصص فصل في جواب اعتراضات يتشبث بها المتعصبون، وفي الخاتمة يوجد إشارة أنه من خلال هذه الأدلة لا يريد أن يترك ثغرة يمكن من خلال ينقلب العلماء عليه وربما يصل الأمر بهم إلى تكفيره وهذا ما جعله يقحم في الرسالة الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال الصحابة وغيرهم من التابعين والعلماء. وما يأخذ عليه خلال تقديمه لأسباب الوباء أعطى تفسير غير علمي وربط وباء الطاعون بالجن: «أما كونه من أثر الجن فلا يمكن إنكاره، مع أنه قد شوهد ما يعضده. ولا ريب في أن الوباء أصل منشئه، من العفونات وهي أوفق بمزاج الجن، فلا يبعد أن تكون...هذا مجرد احتمال ظهر لي، والقرائن تعضده». ينظر: حمدان خوجة، المصدر السابق، ص ص 124- 128، 132-133.
159. حمدان خوجة، المصدر نفسه، ص 159.
160. حمدان بن عثمان خوجة، ، المصدر السابق، ص ص 146- 159.

www.manaraa.com